صورة البطل في "الرواية المخابراتية"

(الإنجليزية والعربية) – دراسة مقارنة

إعداد

مازن بن محمد مريسى الحارثى

الأستاذ المساعد بكلية الآداب جامعة الطائف

ملخص البحث باللغة العربية:

يُعالِجُ هذا البحث موضوعًا محددًا في مجال الدراسات الأدبية المقارنة؛ هو "صورة البطل في الرواية المخابراتية" الإنجليزية والعربية – دراسة مقارنة، من خلال دراسة رواية "الجاسوس المستجير من البرد" للكاتب الإنجليزي (جون لو كاريه)، ورواية "كنت جاسوسًا في إسرائيل" للكاتب المصري (صالح مرسي)، في إطار تحديد صورة البطل في الخطاب الروائي من خلال أبعاد ثلاثة (اجتماعي- وطني-عاطفي).

وانتهى البحث إلى حرص الكاتبان على عرض الأحداث الواقعية في جو من التشويق والإثارة كي يكتشف القارئ من خلال الأحداث حقائق وعلاقات متشابكة وجرائم قتل وفساد رجال المال والسياسة بصورة تغرس داخله حب الوطن، والاستماتة في الدفاع عنه تجاه أعدائه.

وعلى الجانب الوطني هناك اختلاف بين شخصية "رأفت الهجان"، وشخصية أليك ليماس؛ لأن رأفت كان شديد الشوق لوطنه أكثر من الصورة التي ظهر عليها ليماس.

وفي الجانب الوجداني استخدم ليماس المرأة، وعلاقاته العاطفية لمصالحه الشخصية، في حين كانت المرأة عند رأفت الهجان تمثل نقطة ضعفه، بسبب تعاطفه الكامل معها.

ملخص البحث باللغة الإنجليزية:

This paper deals with a specific topic in the field of comparative literary studies. It is the "image of the hero in the English and Arabic intelligence novel" - a comparative study, through the study of the novel "The Spy from the Cold" by the English writer (John le Carré), and the novel "I was a spy in Israel" by the Egyptian writer (Saleh Morsi), in the context of determining an image The hero in the narrative discourse through three dimensions (social - national - emotional).

The research ended with the authors' keenness to present real events in an atmosphere of suspense and excitement so that the reader discovers through the events facts, intertwined relationships, murders and corruption of money and politicians in a way that instills in him the love of the homeland, and the determination to defend it against its enemies.

On the national side, there is a difference between the character of "Raafat El-Hagan" and the character of Alec Limas; Because Raafat was more eager for his homeland than the picture in which Limas appeared.

On the emotional side, Limas used the woman, and his emotional relationships for his personal interests, while the woman at Raafat Al-Hagan represented his weak point, because of his full sympathy with her.

مقدمة

يُعالِجُ هذا البحث موضوعًا محددًا في مجال الدراسات الأدبية المقارنة؛ هو "صورة البطل في الرواية المخابراتية" الإنجليزية والعربية – دراسة مقارنة، من خلال دراسة رواية "الجاسوس المستجير من البرد" للكاتب الإنجليزي (جون لو كاريه)، ورواية "كنت جاسوسًا في إسرائيل" للكاتب المصري (صالح مرسي)، في إطار تحديد صورة البطل في الخطاب الروائي من خلال أبعاد ثلاثة (اجتماعي- وطني-عاطفي).

ويُعد "جون لوكاريه" من أشهر كتَّاب الرواية المخابراتية في الأدب الإنجليزي. كما تُعد رواياته علامة مميزة في أدب المخابرات، وبخاصة روايته موضوع الدراسة، والتي حصلت على العديد من الجوائز.

كما يُعد "صالح مرسي" واحدًا من الكتَّاب الذين أسهموا في تطور الحركة الروائية المخابراتية في مصر؛ وقد يرجع ذلك لاعتماده على لون أدبي يختلف –شكلاً وموضوعًا– عن الألوان التي كانت سائدة في العالم العربي في ذلك الوقت، وقد أبدع في رسم صورة مميزة للبطل "رأفت الهجان" في الرواية موضوع الدراسة .

وتكتسب "الرواية المخابراتية" أهميتها من عدة مصادر، لعل في مقدمتها –كما يرى الباحث- أنها رواية قضية تُبْرز الصراع الدائر بين المجتمعات الإنسانية، والذي قد يعدُّ ركنًا أساسيًّا في بناء أحداثها،

وهو صراع يتشكل من بواعث عدة؛ منها حفاظ تلك المجتمعات على أمنها، ودرء المخاطر التي تهددها، أو رغبة بعض القوى الاستعمارية في فرض الهيمنة والاستحواذ، وتحقيق مطامعها التوسعية.

وتكمن أهمية البحث في أنه يحدد طريقة العقل المبدع في تصوير نموذج البطولة التي يتأثر بها الوجدان الجمعي، ويسعى لاكتشاف ماهية الذات، وعلاقتها بالآخر؛ رغبة في الانتصار القومي والوطني لخدمة بلاده.

كما تكمن الأهمية في قلة الدراسات الأكاديمية والأدبية التي تناولت هذا النوع من الروايات في الأدب العربي .

والمنهج الذي تسير عليه هذه الدراسة هو المنهج النقدي (الاتجاه الأمريكي)؛ الذي يبرز أوجه التشابه والاختلاف في رسم صورة البطل وسماته وملامحه بين الروايتين –موضوع الدراسة- بزعم أن الرواية المخابراتية تعرض قصصًا واقعية، قد تنمي روح الهوية وحب الوطن لدى القارئ.

تأتي الدراسة في ثلاثة مباحث؛ المبحث الأول، وفيه مطلبان؛ المطلب الأول: الرواية المخابراتية في الأدب الإنجليزي (نشأتها وأشهر كتَّابها)، المطلب الثاني: رواية الجاسوس المستجير من البرد لجون لو كاريه.

المبحث الثاني، وفيه مطلبان؛ المطلب الأول: الرواية الجاسوسية في الأدب العربي (نشأتها وأشهر كتّابها)، والمطلب الثاني: رواية " كنت جاسوسًا في إسرائيل... رأفت الهجان" للكاتب صالح مرسي.

المبحث الثالث، ويتناول صورة البطل في الرواية المخابراتية من خلال : رواية الجاسوس الذي جاء من البرد " The Spy Who

"Came in from the Cold" لجون لو كاريه، ورواية "كنت جاسوسًا في إسرائيل" لصالح مرسي.

وخاتمة تتضمن أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

المبحث الأول

المطلب الأول

الرواية المخابراتية في الأدب الإنجليزي (نشأتها وأشهر كتَّابها)

المطلب الثاني (رواية الجاسوس المستجير من البرد)

لجون لو كاريه

المبحث الأول: رواية المخابرات في الأدب الإنجليزي: (نشأتها وأشهر كتَّابها)

تُعد "الرواية المخابراتية" في الأدب الانجليزي نوعًا أدبيًا يتضمن التجسس بوصفه سياقًا مُهمًا أو أداة مُؤامرة، وظهر هذا النوع الأدبي

في أوائل القرن العشرين نتيجة للتنافس والمُؤامرات بين القوى الدولية الكبرى، إضافة إلى إنشاء وكالات استخبارية حديثة.

ويرى الباحث أنه يمكن تعريف هذا الاتجاه الروائي –في أبسط اصطلاح أدبي له- بأنه عمل فني تقوم "فكرته الأساسية على صراع معلوماتي بين طرفين يمثلان دولتين أو أكثر، ويستند غالبًا إلى حقائق واقعية، وتتداخل فيه الأبعاد الإنسانية التي تجسّدها حركة الشخصيات مُعتمدًا على وسائل سردية؛ لتوفير عوامل الإثارة والتشويق والترقب، وتجاوز الطابع الوثائقي الذي تعتمد عليه طبيعة تلك النصوص، فأحداث هذا الأدب تقوم فكرتها العامة على استقصاء معلوماتي له مآربه التي تتجاوز التعبير عن نوازع وتصرفات فردية"[١]

تناول الروائيون موضوع الجاسوسية في أعمالهم، إلا أن هذا النوع الأدبي لم يعمق وجوده في جنس الأدب إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وبقيت ساحة أدب المخابرات حِكرًا على الكُتّاب البريطانيين زمنًا طويلاً، وأبرز من كتبوا في هذا النوع الأدبي عملوا خلال مرحلة من حياتهم جواسيسًا لبلدهم أو عملاءً مزدوجين.

ويزعم الباحث أنه يمكن القول إن "إيان فليمنج (١٩٠٨-١٩٦٤م) قد "رَسَخَ مفهوم الرواية الجاسوسية العالمية من خلال شخصية "جيمس بوند" التي تم إنتاج كثير من الأفلام عنها"[١]

لقد ابتكر "إيان فيلمنج" شخصية "جيمس بوند"، التي أثرت في كثير من الروائيين الإنجليز الذين كتبوا في الرواية المخابراتية، وربما كانت معاصرة "إيان فليمنج" لحربين عالميتين سببًا كافيًا لتأسيسه رواية المخابرات على هذا النحو الذي كتب لها الظهور والانتشار في أرجاء العالم.

وقد أصدرت الكاتبة الإنجليزية (بنجوين) كتابًا بعنوان: (كتاب وجواسيس وقتلة)، وتناول الكتاب دراسات عن كتّاب ومؤلفين عملوا جواسيسًا أو عملاء استخباراتيين، وقدمت نظرية نقدية في منهجية

القصة المخابراتية، ويشير الكتاب إلى أن ابتداع شخصية العميل رقم ٠٠٧ أو (جيمس بوند) من قبل الروائي (إيان فيلمينج)، يرجع لكونه كان عميلاً للاستخبارات البريطانية في روسيا وبلدان أخرى.

كما تحدث الكتاب عن الأديب (سومرست موم ١٨٧٤ - ١٩٦٥م) الذي امتهن أيضًا، العمل الاستخباراتي. وعرض الكتاب جوانب من حياة موم التي عُدت أكثر غموضًا من حياة فيلمينج.

حيث أوضح أنه في عام ١٩١٥م التقى موم بضابط مخابرات بريطاني، وتوطدت بينما أواصر الصداقة، ومن ثم نجح الضابط في تجنيده بوصفه عميلاً لمصلحة الاستخبارات البريطانية (SIS). ولعل ضابط الاستخبارات وجد في النجاح السريع لرواية موم (الاسترقاق البشري) وسيلة يحقق من خلالها هدفه. فأوعز لموم أن موهبته اللغوية ستمكنه من خدمة وطنه عن طريق العمل في سلك الاستخبارات. واقترح عليه استغلال براعته الأدبية لتكون غطاءً لعمله المخابراتي، وهكذا تحول سومرست موم إلى جاسوس، ومارس عمله من خلال إرسال رسائل مشفرة، والطريف أن موم لم يتقاض أجرًا من المخابرات البريطانية، حيث عدَّ عمله واجبًا وطنيًّا.

ويرى البحث أن الرواية المخابراتية[١] انتشرت في الأدب الإنجليزي أثناء الحرب الباردة، وظهر عدد كبير من الكتّاب لمعوا في هذا الاتجاه مثل: سومرست موم (١٨٧٤- ١٩٦٥م) و جراهام جرين (١٩٠٤-١٩٩١م) ، وجون لو كاريه (١٩٣٢-٢٠٢٠م) وغيرهم .

أما عن أسباب تطور أدب المخابرات، فإنه قد يرجع إلى ظهور "الفاشية والشيوعية في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية، واستمر في التطور إبان الحرب الباردة، واستمد قوته مرة جديدة مع ظهور الدول المارقة والمنظمات الإجرامية الدولية والشبكات الإرهابية العالمية، والقرصنة البحرية والتخريب التكنولوجي والتجسس بمثابة تهديدات قوية للمجتمعات الغربية."[١]

انبثقت الرواية المخابراتية في الأدب الإنجليزي من الرواية البوليسية وأعمال المغامرة، وجاءت استجابة لتغيرات الواقع السياسي، والحروب المختلفة، وبخاصة الحرب الباردة. لكن على الرغم من التقارب بين الرواية البوليسية ورواية المخابرات، فإن لكل منهما سمات خاصة؛ فرواية المخابرات تحتاج إلى ذكاء وفطنة عالية، ودرجة كبيرة من الغموض والخفاء والتعمق في سرد الأحداث، وعلى هذا الأساس "لم تعرف رواية التجسس كتّابا غزيري الإنتاج مثلما يحدث عادة في الرواية البوليسية، ولا يوجد تفسير محدد لهذا الأمر، ولكن هناك عدة تفسيرات تدخل في هذا الإطار، منها: أن رواية التجسس حاولت أن تبتعد عن الهامشية التي اتسمت بها الرواية البوليسية، ولم تسع إلى مغازلة القارئ بنفس القدر، ومنها أيضا قلة الأدباء نسبيا الذين عملوا في هذا النوع من الروايات"(١)

وقد تطور الأدب البوليسي، ودخلته شخصيات جديدة، وأنماط جديدة في كتابته؛ حيث انبثق من عباءته الروايات المخابراتية التي غذتها أحداث القرن العشرين، ومن أشهر الشخصيات المبتدعة في هذا الشأن شخصية جيمس بوند وشارلوك هولمز.

كما أن الرواية المخابراتية قد ترتبط بشكل أو بآخر "بشكل موضوعي برواية المغامرة مثل سجين زندا، وأعمال إدغار والاس على سبيل المثال."(١)

لكن يمكن القول إنه إذا كانت الرواية المخابراتية قد نشطت "في الأدب الغربي مع اندلاع الحرب الباردة متأثرة بنشاط أعمال الجاسوسية بين الدول الحليفة، بحيث تصدرت روايات ذلك الأدب الجديد قوائم المبيعات، فإن هذا النوع فقد بريقه مع انتهاء الحرب الباردة، وتغير الأوضاع السياسية"(١)

وقد تكون الحرب الباردة مصدر إلهام لا مثيل له لروايات المخابرات، لكن جوهر هذه الروايات لم يتغير بعد تلك الحرب، وكان القراء يتوقعون أبطالاً واضحين يتصدون لأعداء خارجيين. ويتوقعون أن

تفاصيل الصراعات الدائرة على الساحة العالمية قد باتت أكثر تداخلاً واختلاطًا.

وفي هذا يقول كاتب روايات المخابرات أولين ستاينهاور: إنه "خلال الحرب الباردة، يستطيع أي قارئ لرواية عن الجاسوسية أن يفهم ما يدور فيها من صراعات على تنوعها، فهي تكون في العادة الشرق مقابل الغرب، أو أن البطل في مواجهة الفساد السياسي، أو أن الغربيين الجشعين يدمرون نظامهم بأيديهم."[١]

كما أن الأدب المخابراتي قد يُعدُّ ابنا شرعيًّا للحروب، ففكرته الأساسية تقوم على صراع معلوماتي بين طرفين (أو عدة أطراف) يمثلان دولتين أو أكثر.

وإذا كان نجاح الأدب بعامة يتكئ في أحد محاوره على عنصر التشويق المستلهم من الفضاء اللانهائي للخيال، ففي أدب الرواية المخابراتية يكاد يكون هذا هو العنصر الرئيس والأكثر أهمية على الإطلاق، حتى أنه، ومن وجهة نظر النقاد قد يأتي على حساب بعض التقنيات الفنية.

مَثّلت روايات المخابرات والتخابر مادة مفيدة ومهمة للمنتجين والمخرجين السينمائيين، فالكثير من هذه الروايات حُوِّلت لمسلسلات أو أفلام مشهورة، بل إن بعضها كُتب بالأصل ليصبح سيناريو لعمل تلفزيوني.

ولعل (سرّ) جاذبية هذه الروايات، قد يرجع إلى مثاليتها في تقديم (الحبكة) والتشويق والتحفز والإثارة. فضلاً عن أن (غموض ومفاجآت وملابسات) لعبة التجسس الذي تتركه لدى القارئ، يخلف لديه، لعبة تصوّر بصرية. فتجعله قادرًا على خوض اللعبة التي تنقل الأحداث والشخصيات من حيز التلقي اللغوي، إلى حيز التلقي البصري، كما أن حياة الجواسيس مليئة بالمغامرات والمؤامرات والدسائس والمكائد والخيال والعجائب والغرائب.[١] وهذا هو ما يقرب

المتلقي من الأعمال الروائية المخابراتية، كما أن البحث يرى أن المتلقي في هذا الأمر قد يحلم بأن يكون مثل البطل الذي يقوم بهذه المغامرات.

أخيرًا يبقى أن يشير الباحث إلى أنه في هذا الإطار يظهر بصورة جالية ارتباط الرواية المخابراتية بالرواية السياسية منها إلى الرواية البوليسية، وقد يرجع ذلك إلى أن "السياسة أقرب للنظام الأمني للدول من مجرد كتابة بوليسية أو مخابراتية"[١]

ويبدو أن مصطلح "أجهزة التجسس" قد يكون غير مفضل عند بعض الكتاب، ويستخدمون بدلاً منه مصطلح "أجهزة الاستخبارات أو مكاتب التحقيقات" أو قد "تفضل أن يطلق عليها وكالة استخبارات، أو مؤسسات الأمن القومي، أو مكاتب التحقيقات. وفي عالم التجسس، كما نعلم، يبقى هناك عامل ضبابي كثيف ما بين الحقائق الصارمة وبين عامل الخيال، وفي كثير من الأحايين قد تكون بين الاثنين مساحة من العتمة يصعب التكهن بها"[١]

وهو ما يظهر في هذه العلاقة التي قد تبدو مبهمة في الرواية المخابراتية، والتي يراها الباحث قد تقوم في كثير من الأحايين على قصص قد تبدو حقيقية، ولكن فيها هذا الخيال الذي يكون من المؤلف ذاته، والذي لا ينقل الواقع بحذافيره.

٢_ أشهر كُتّاب الرواية الجاسوسية في الأدب الانجليزي[١]:

٢_١ سومرست موم (١٨٧٤- ١٩٦٥ م):

هو روائي وكاتب مسرحي إنجليزي عمل في المخابرات البريطانية، وكتب روايته الشهيرة "عندما كنت جاسوسًا" التي حققت مبيعات هائلة. والتي فيها اعتمد على أحداث حقيقية بوصفه كان جاسوسًا للمخابرات البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان يتلقى الأوامر من المخابرات البريطانية، وكان منتقلاً ما بين فرنسا

وسويسرا وإيطاليا، وقد اختاره الكولونيل لأن عمله بوصفه مؤلف روايات يبرر له تحركاته الكثيرة في القارة الأوروبية، وبذلك كتب روايته المشهورة.

٢_٢ إيان ماكوين (١٩٤٨ - د.ت):

ليس الكاتب البريطاني "إيان ماكوين" أول من كتب في أدب الجاسوسية، إذ سبقه إلى ذلك نخبة من الأدباء، من بينهم : غراهام غرين، أيان فليمنغ، سومرسيت موم، شارلس ماكاري. وكل واحد من هؤلاء الكتّاب له قصته مع الجاسوسية. وهناك الكاتب الإنجليزي الشهير إيان فيلمينغ، الذي كان عميلاً للاستخبارات البريطانية في روسيا، وبلدان عديدة.

وهو ما جعله يبتدع شخصية العميل رقم ٠٠٧، أو جيمس بوند الذي يعرفه العالم بأسره، إذ شرعت السينما تتلقف رواياته لتحولها الى أفلام تجتذب قطاعًا كبيرًا من جماهير العالم[١] لكن إيان ماكوين كان له دورًا مهمًّا بروياته من مثل (الصرصار- قشرة الجوزة).

٢_٣ جراهام جرين (١٩٠٤م – ١٩٩١م)

لمعت روايات المخابرات على يد الروائي (جراهام جرين ١٩٠٤-١٩٩١) الذي رسخ شهرته بروايته الرائعة (قطار إسطنبول). وقد ولد جراهام في هرتفوردشير بإنجلترا، وتلقى تعليمه في جامعة أكسفورد. ونشر العديد من الكتب في مجال الرواية والقصة القصيرة والرحلات والمسرحية والنقد الأدبي. وعمل بالصحافة حينًا من الدهر، وعمل جاسوسًا في خدمة MI6 في سيراليون خلال الحرب العالمية الثانية. وتأثرت كتاباته بمذهبه الكاثوليكي وبمرضه العصبي.

٢_٤ لين ديتون (١٩٢٩م - د.ت)

كتب الروائي البريطاني لين ديتون Len Deighton روايته "ملف إيبكريس" الذي حقق من ورائها شهرته بوصفه روائيًا عظيمًا. وروايته "ملف إيبكريس"، وهي رواية جاسوسية حُوِّلت لفيلم سينمائي من بطولة مايكل كين. ولد لين ديتون في ١٨ فبراير ١٩٢٩م في ماريلبون في لندن، وكان والده سائقًا وميكانيكيًّا، وكانت والدته طباخة، وهو مؤرخ عسكري بريطاني وكاتب سيناريو، وكاتب مسرحي، وكاتب خيال علمي.

٢_٥ جون لو كاريه (١٩٣١-٢٠٢٠م)

جون لو كاريه (John le Carré) هو الاسم المستعار للكاتب ديفيد جون مور كورنويل (David John Moore Cornwell)، وكانت كتبه الأكثر مبيعًا، وأيضًا رواياته التي تركز على البيئات السياسية والتجسس في عصر الحرب الباردة.

وقد ولد في ١٩ أكتوبر ١٩٣١م، في بول، دورست، المملكة المتحدة، إنجلترا.

ويُعد جون لوكاريه صاحب العشرات من الروايات المخابراتية ذائعة الصيت، ومخترع شخصية الجاسوس الغربي الظريف "جورج سمايلي"، المنخرط في معركة حامية الوطيس ضد "كارلا"، الشخصية النقيضة والضابط في الـ KGB.

وهو بريطاني سليل الغرب الأوروبي، وأحد كبار الأساتذة في الخيال الروائي البوليسي حول المواجهة بين الشرق والغرب، و كان لوكاريه عميلاً سريًّا ومهتمًا بالأدب، فكتب أولى محاولاته الروائية، ووقّعها باسم لوكاريه المُستعار.

ولا يغيب عن بالنا أن لوكاريه: مثل غرين وموم، اشتغل على رفع أدب التجسس من دائرة الأدب الشعبي الترفيهي المثير إلى عالم الأدب الروائي الكبير.

وقد وصلت رواياته عن الجاسوسية، والتي تتسم بأنها مبنية على بحث دقيق ومستفيض ومكتوبة بأسلوب مميز، إلى جمهور واسع عبر تحويلها إلى أعمال سينمائية وتلفزيونية ناجحة. حيث إنه "بعد أن انتهت الحرب الباردة أصدر كتابًا يمكن اعتباره واحدًا من أهم كتبه، وهو "الرحلة السرية". وهو كتاب تكمن أهميته في كونه يلخص بشكل من الأشكال رحلة الكاتب نفسه، مع العمل المخابراتي، ومع العمل الأدبي في آن معًا.

ترك لو كاريه بصماته في أكثر من عشرين رواية له، وهى تكشف عن صورة العمل الاستخباراتي البريطاني في الخيال العام داخل بلد مهووس بالجاسوسيّة وقصصها، مسجلا بأدوات الخيال الأدبي مسار تراجع مكانة بريطانيا في الساحة الدّوليّة بعد الحرب العالميّة الثانية"[١].

وتعد روايات جون لو كاريه من أفضل نماذج أدب المخابرات خلال فترة الحرب الباردة في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، وللحقيقة فإن وصف أعمال لو كاريه الروائيّة بـ«أدب المخابرات» قد لا يمنحها حقّها بالكامل، فقد صقلت موهبة لو كاريه في النّظر العميق وراء المظاهر الخادعة من تجاربه الحياتيّة المبكّرة سواء من ناحية علاقته الصعبة بوالده؛ رونالد كورنويل، ثم التحاقه منذ أيّام دراسته الجامعيّة بالعمل الاستخباراتي البريطاني في قلب أوروبا.

وهذا كله كان من نتيجته أن تُرجمت نتاجاته إلى معظم اللغات الحيّة في العالم ـ بما فيها العربيّة ـ كما نقل معظمها إلى السينما والتلفزيون ـ بعضها مرات عدّة ـ وشارك في تقديمها ممثلون عالميون؛ "ولا شكّ في أن مكانته عند القرّاء ـ كما عند الجواسيس ـ ستبقى موضعًا للإجلال، وأعماله بمجملها ستكون بمثابة سجّل تأريخ لسيكولوجيا البريطانيين وثقافتهم الجمعيّة خلال السبعينيات، ومن أعماله الأكثر شهرة: "الجاسوس الذي جاء من البرد" (١٩٦٣)- "المصلح خياط جندي جاسوس" (١٩٧٤)- سمكري خياط جندي جاسوس (فيلم)-

"البيت روسيا" (١٩٨٩)- "وخياط بنما" (١٩٩٦)- و"غاردنر ثابت" (٢٠٠١) البستاني المخلص."[١]

٢_٦ ويليام بويند (١٩٥٢ - د.ت)

يحتلّ الكاتب البريطاني (ويليام بويد) المولود في أكرا، عاصمة غانا، مكانة بارزة في أدب بلاده، فجميع ما أصدر من روايات قد ترجمت إلى العديد من اللّغات. وفي روايته التي حملت عنوان (انتظار الصباح) يأخذ قرّاءه إلى عالم الجاسوسية ، وذلك من خلال جاسوس في الحرب الكونيّة الأولى، ينطلق إلى فيينا التي كانت آنذاك عاصمة لإمبراطوريّة مترامية الأطراف، ليعرض نفسه على طبيب نفسي يعمل بحسب نظريّات فرويد، وهناك يلتقي بفتاة جميلة تدعى (هاتي بول)، ويغرم بها ليتغير مجرى حياته ومصيره، وهو ما لم يكن يتوقعه قبل ذلك.

ويقول ويليام بويند إن عائلة (إيان فليمينغ)، مبتكر شخصيّة (جيمس بوند)، منحته حق كتابة سيناريوهات جديدة لهذه الشخصيّة الشهيرة. وهو يرى أن أغلب الكتاب البريطانيّين الكبار اهتمّوا بعالم الجاسوسية ، لما فيه من مؤامرات وملابسات ومغامرات ودسائس وعجائب وغرائب. وهو مهتمّ بصفة خاصّة بشخصيّة (كيم فيلبي)، الجاسوس البريطاني المزدوج الذي يعتبر من أكبر الخونة لوطنه. فقد عمل هذا الجاسوس لصالح المخابرات الروسية على مدى عشرين عامًا من دون أن يتفطّن أحد إلى عمله.

المبحث الثاني

رواية "الجاسوس الذي جاء من البرد The Spy Who Came in from the Cold" للكاتب البريطاني "جون لوكاريه":

تُعد رواية "الجاسوس الذي جاء من البرد (The Spy Who Came in from the Cold) للكاتب البريطاني جون لوكاريه (١٩٣١-

٢٠٢٠م) من أشهر رواياته على الإطلاق، ونُشرت عام ١٩٦٣م، وتدور حول عالم الجاسوسية أثناء الحرب الباردة، عندما كان التجسس أحد الوسائل الرئيسة للصراع بين الأنظمة السياسية المختلفة، وقد تم اختيار الرواية من بين أفضل الروايات العالمية في مجال الجاسوسية.

وعن أسباب كتابة هذه الرواية يقول كاتبها، والذي يعد أحد أساتذة التخييل الروائي البوليسي، وقد عمل لحساب أجهزة الاستخبارات البريطانية (إم-١٦)، فيقول: "إن هذه الفكرة لم تخطر له بسبب ميول شيوعية، بل كانت بدافع الفضول في اكتشاف ما كانت الحياة عليه خلف الستار الحديدي... لأنه حين تعملون في التجسس بشكل كثيف وتقتربون أكثر فأكثر من الحدود، يخيل لكم أنه لم يبق سوى القيام بخطوة صغيرة لاكتشاف كل ما تبقى... وفى فترة معينة شعرت برغبة قوية في ذلك القرار"[١]

وتدور أحداث الرواية بعد وقت قصير من بناء جدار برلين، فهي تمثل الجزء الثالث من روايات الجاسوسية التي تركز على أنشطة وحدة المخابرات البريطانية المعروفة باسم السيرك، وهي مستوحاة من تجارب لوكاريه الخاصة في العمل في استخبارات (MI5 - MI6) في الخمسينيات والستينيات حيث تم استدعاؤه لإكمال مهمة أخيرة، وتنكر في هيئة منشق، وسافر إلى ألمانيا الشرقية من أجل إسقاط وحدة استخبارات ألمانية.

وتتسم الرواية بأنها مبنية على بحث دقيق ومستفيض ومكتوبة بأسلوب مميز، وقد وصلت إلى جمهور واسع عبر تحويلها إلى أعمال سينمائية وتلفزيونية ناجحة.

وفي الرواية نجد رئيس الإقامة البريطانية في برلين الشرقية "أليك ليماس" بعد وفاة أحد عملائه الرئيسيين، وهو عضو في الحوار الاقتصادي الاستراتيجي (كارل ريماك)، يرجع إلى لندن ويُهَدِّد بالتقاعد. فقد خسر جميع عملائه في المعركة ضد المخابرات الألمانية الشرقية، والتي يرأس قسمها "هانز ديتر مندت".

ومع ذلك ، فإن قيادة المخابرات البريطانية تمنح ليماس فرصة أخيرة -للمشاركة في عملية محفوفة بالمخاطر لتشويه سمعة مندت في أعين حكومة جمهورية ألمانيا الديمقراطية بصفته وكيلاً في لندن، ويُزعم أن ليماس يُطرد للتقاعد، ويعيش لفترة من الوقت حياة بائسة في حالة سكر وقلق وخوف، وبعد ذلك يعرف ليماس أن شعب مندت سيقيم اتصالًا معه عاجلاً أم آجلاً، لأنه بصفته ضابط مخابرات سابق لديه معلومات قيمة ستهتم بها المخابرات الألمانية كثيرًا.

وصور الكاتب شخصية "ليماس"، وهو يعيش حياة فقيرة وبائسة بعد تقاعده، كما دخلت "إليزابيث جولد" في العملية، وصوره وهو يسرق الأموال من حسابات السيرك لدعم المعاش التقاعدي الصغير الذي منحه له رؤساؤه، واضطر للذهاب إلى الإعانة، وفي النهاية حصل على وظيفة في مكتبة صغيرة متهالكة، وكان يعيش في شقة منخفضة الجودة. وأثناء وجوده هناك، التقى بليز جولد -سكرتيرة الحزب الشيوعي المحلي- في بريطانيا العظمى، وأقام الاثنان صداقة، وأصبحا حبيبين في النهاية، وبعد بضعة أيام ودعها ليماس، وطلب منها ألا تبحث عنه، ويأخذ في تنفيذ خطته؛ حيث يتم القبض عليه بتهمة الاعتداء، ويحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة أشهر. قبل أن يُشرك نفسه بالكامل في المخطط، ووعد كونترول بترك ليز وشأنها.

يقول لوكاريه في أسلوب استباقي إعلاني[١] "سيدع ليز تعثر له عليه أسبوع، ربما أسبوعان، وسيعود إلى الوطن. كان المشرف قد قال إن بإمكانه الاحتفاظ بما دفعوا له وذاك سيكون كافيًا. فمع خمسة عشر ألف جنيه ومكرمة وتقاعد من الميدان، فإن رجلاً-كما اعتاد المشرف على القول– يستطيع الاحتماء من البرد."[١]

ويتواصل أفراد مندت مع ليماس، ويعرضون عليه الانتقال إلى هولندا، حيث يمكنه إخبارهم بكل ما يعرفه لقاء الحصول على مبلغ كبير من المال، وفي هولندا يلتقي بضابط المخابرات الألماني "بيترز"، والذي يستخلص من ليماس كل تفاصيل العمل الاستخباري،

وفي ذلك كان دائمًا ما يتذكر كلام المشرف في يكون حريصًا في إعطاء المعلومات لهم.

يقول لو كاريه "وتساءل عما سيحل به. لم يتحدث المشرف عن ذلك – بل تحدث عن الطريقة إذ قال: لا تعطهم إياها دفعة واحدة، دعهم يسعون إليها. اربكهم بالتفاصيل. اترك أشياء. عد إلى الوراء على آثار أقدامك. كن عنيدًا وصعبًا."(١)

وكان هدف ليماس هو توفير المعلومات التي يمكن أن يستخدمها "فيدلر" الذي يكره رؤساؤه، ويتم نقل ليماس في النهاية إلى مكان منعزل في هولندا، ويوضح ليماس لفيدلر أن المخابرات البريطانية لديها وكيل ثمين للغاية في هذا البلد الذي تحافظ لندن على اتصالات مباشرة معه، لكن ليماس لا يعرف اسمه.

ويبين لنا الكاتب أن مهنة التجسس تحتاج إلى دهاء وبراعة من العميل حتى يستطيع خداع الجانب المضاد، وظهر ذلك في شخصية "ليماس" من خلال حواره مع "فيدلر"، لأنه عمد إلى المراوغة والذكاء في الرد على استفساراته؛ فالمغامرة في الرواية المخابراتية تعتمد على الذكاء والقدرة الذهنية أكثر من المهارة البدنية، فضلًا عن اعتمادهم على أجهزة إلكترونية تسهم في تنفيذ مخططاتهم الجاسوسية.

وهنا يجب التنويه إلى أن كُتَّاب هذه النصوص "ابتدعوا مسارا وحقولًا أخرى لربط الحوادث بعوالم الجاسوسية والإرهاب، وفضاءات الجنس والاقتصاد والسياسة والجنون والغرابة المقلقة"(١) وهي أمور قد تدخل في إطار ما سبق عرضه من اعتماد المغامرة على المراوغة والذكاء، فهذه الفضاءات من الجنس والاقتصاد تحتاج إلى قدرة معلوماتية حتى يستطيع جذب الآخر إليها دون أن يشك في أنه قد يبدو كمينًا من الآخر المخابراتي.

ويعبر ليماس عن إحباطه ورغبته في العودة إلى إنجلترا، وإحساسه بالملل، فمن خلال المحادثات مع فيدلر، واستفساره عن أسباب النضال

بين النظامين المتحاربين، يبرر فيدلر له بأن النظام الاشتراكي يدافع عن نفسه ضد الثورة المضادة، وأنه لا يمكن أن تكون هناك العدالة المطلقة في النضال من أجل السلام والتقدم، وأن المخابرات سلاح في أيدي الحزب، وما إلى ذلك من معلومات قد تثير لدى ليماس الريبة فيما يفعله.

لم تكن إجابات ليماس قاطعة للغاية، ولكن من الواضح أن الغاية تبرر الوسيلة، فعلى الرغم من أن ليماس نفسه بعيد كل البعد عن السخرية على عكس فيدلر، فإنه سئم بالفعل من النضال الذي لا ينتهي ويريد العودة إلى إنجلترا.

يقول لو كاريه: "نظر فيدلر إلى أصابعه القوية النحيفة، ثم قال: صعب أن يكون هذا الوقت وقت تفلسف. لكنك لا تستطيع التذمر كما تعلم. سجل عملنا –أنت وأنا– متجذر في النظرية القائلة بأن الكل أكثر أهمية من الفرد. ولهذا يرى الشيوعي خدمته السرية امتدادًا طبيعيًّا لذراعه، ولهذا يعتبر العمل الاستخباري في بلادك مغلفًا بنوع من الحياء الإنجليزي... نحن هنا ليس لمراعاة القوانين الأخلاقية لحياة الريف الإنجليزي."[١]

كانت تراوضه الأفكار والتساؤلات كثيرًا، فكان يجد الإحساس بالأمان في العودة إلى الوطن. يقول: "ربما كان فيدلر هو الاهتمام الخاص الذي قاتل المشرف من أجل الاحتفاظ به بكل قوة. لم يتوقف ليماس عند هذا الاحتمال، ولم يرغب في أن يعرف... مع ذلك تمنى من الله أن يكون ذلك صحيحًا. كان من الممكن فقط في تلك الحالة أن يعود إلى الوطن."[١]

تظهر رواية "الجاسوس المستجير من البرد" أن العمل مع أجهزة المخابرات له نظام قوي وصارم؛ لأنه يتكون من شبكة تشمل العملاء والمشرفين والضباط وغيرهم، ويصور الجاسوس الذي جاء من البرد أساليب التجسس الغربية على أنها غير متوافقة أخلاقيًّا مع الديمقراطية والقيم الغربية، وهو ما قد يعد نقدًا للحياة الاستخباراتية في الغرب، بما

أنها تتعامل بمكيالين؛ أحدهما استخباراتي يبيح كل شيء، وآخر أخلاقي ديمقراطي قائم على القيم الأخلاقية.

وتم القبض على مندت، وتمت محاكمته من قبل المحكمة المعينة من قبل هيئة الرئاسة، وسيكون فيدلر المدعي العام، ودافع عن مندت المحامي المعروف كاردين، الذي قدَّم شاهد دفاع مجهول إلى المحكمة. هذا الشاهد هو "إليزابيث جولد"، وقد ذهبت إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية بناء على دعوة من الشيوعيين الألمان، وتظهر معلومات تشير إلى أن المخابرات البريطانية وراء ليماس، وبعد اختفائه ذهب بعض الأشخاص إلى إليزابيث، وتلقت مبلغًا كبيرًا من المال منهم، ولكن ارتكب ليماس خطأ في الاتصال بهذه المرأة التي كانت تعرف الكثير، دون أن تفهم أي شيء عما كان يحدث.

وضلل ليماس فيدلر، الذي كان يحاول تشويه سمعة مندت، وهو عضو أمين في الحزب، وتوصل كاردن والمحكمة بأكملها إلى هذا الاستنتاج معتقدين أن مكائد العملاء الغربيين قد تم الكشف عنها، ويعترف ليماس بذلك، وبعدها تمت تبرئة مندت، وواجه فيدلر العقاب -وهذا هو بالضبط ما كانوا يبحثون عنه في لندن-.

ولكن فيدلر كان يتهم مندت دائما بالخيانة والغدر فيقول: "لقد كسب مندت سمعة كمدافع مخلص وذكي عن الشعب، وقد أخرس وإلى الأبد تلك الألسن التي كانت تستطيع إفشاء سره. وهكذا قتل باسم الشعب ليغطي خيانته الفاشية، وتقدم وظيفيًا داخل مخابراتنا. ليس من الممكن تخيل جريمة أكثر بشاعة من هذه."[١]

وإذا كانت الرواية البوليسية تعتمد على حل اللغز والوصول إلى المجرم فإن الرواية المخابراتية تعتمد على التضليل والمراوغة، ومحاولة الحصول على أكبر قدر من المعلومات، ففيها يتم الاعتماد بشكل أكبر على "عنصر الإثارة، وعلى المراوغة والتضليل، وتضييق فرص الحصول على تحقيق مكاسب معلوماتية بشتى وسائلها البشرية والتقنية."[١]

كان مندت العامل المهم جدًا الذي ألمح إليه ليماس أثناء حواره مع فيدلر، و في الوقت نفسه تم استخدام ليماس وحبيبته لأغراضهم من قبل المخابرات البريطانية، وأخيرًا قضت محكمة العدل في جمهورية ألمانيا الديمقراطية بفضح مكائد العدو، ويساعد مندت ليماس وإليزابيث على الهروب من السجن. ومع ذلك، لم تعد هناك حاجة لكل منهما، فقد استخدمتها الأنظمة المتحاربة، ويموت الأبطال برصاص حرس الحدود في وقت عبورهم للحدود إلى برلين الغربية.

وأوضح ليماس للإليزابيث حقيقة الأمر بعد مساعدة مندت لهما على الهروب من السجن فقال: "كان مندت على علم بكل شيء. كان يعرف الخطة، وجعلهم يلتقطونني، هو وفيدلر. بعدها ترك المهمة لفيدلر لأنه كان يدرك أن فيدلر سيشنق نفسه... والحقيقة أن مندت كان جاسوسًا بريطانيًا... لقد حكم على فيدلر بالموت، وأنقذ مندت"[١].

وبعد المحاكمة مباشرة، حدد مندت بمهارة موقع ليماس وليزا ثم أطلق سراحهما، ومنحهما سيارة للانتقال من موقعهما الحالي إلى جدار برلين.

لقد كان ليماس بطلا. حارب من أجل وطنه، واستمات في التضحية والفداء، فقد أكدت الرواية ضعف الديمقراطية الغربية والخدمات السرية التي تحميها مما يعني في الكثير من الأحيان وجود تكافؤ أخلاقي بين الشرق والغرب؛ علاوةً على ذلك، فهي تحتوي على القليل من العنف الذي عادةً ما يكون موجودًا في أفلام التشويق، لأن الكاتب اعتمد على وقائع حقيقية، وهو ما سبق توضيحه من أن الرواية المخابراتية يعتمد بناؤها الروائي "- في الأعم الأغلب- على حقائق الواقعية الصارمة، والشخصيات التي تنتمي إلى الواقع بقوة، بما يجعل المعلومات والوثائق جزءًا أصيلًا في بناء أحداثها."[١] وهو ما ظهر جليًا واضحًا في خط سير أحداث رواية "الجاسوس المستجير من البرد".

المبحث الثاني

المطلب الأول: الرواية الجاسوسية في الأدب العربي (نشأتها وأشهر كتّابها)

المطلب الثاني: رواية " كنت جاسوسًا في إسرائيل... رأفت الهجان" للكاتب صالح مرسي .

المبحث الأول

الرواية المخابراتية في الأدب العربي :(نشأتها وأشهر كتّابها)

مفهوم الرواية المخابراتية في الأدب العربي:

قد يبدو أن التجسس ظاهرة إنسانية عامة؛ لأن الإنسان وُلد على حب مراقبة الآخرين وتتبع أخبارهم، وعادة تستخدم كلمة "الجاسوس" في التعبير عن الطرف المعادي الذي يتجسس بغية الشر، وهو مفهوم ظاهر منذ عهد فرعون، فقد "كان يستخدم الجواسيس في كل بقاع المستعمرات المصرية وفلسطين وسوريا، وكذلك في الممالك المتحالفة معه. كما كانت تستخدم أمراء المستعمرات أنفسهم جواسيس على بعضهم البعض"[١]

لعب الجواسيس دورًا كبيرًا في الحروب التي لازمت البشرية في تاريخها الطويل، وفي كل أنحاء العالم، وفي هذا يقول الدكتور الطاهر مكي في حديثه عن رواية التجسس، وأن الجاسوسية كانت سمة بارزة منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وظهرت في غزوة الخندق، حيث كان المسلمون "يعرفون كل شيء عن أعدائهم في مكة، على حين لم يحاول هؤلاء أن يعرفوا شيئًا عن المسلمين، ولذلك عندما جاءوا المدينة يهاجمون المسلمين، ووجدوا خندقًا يحيط بها دهشوا ورأوه عجيبًا، ووقع الرعب في قلوبهم، وعادوا من حيث جاءوا "[١] وهو رأي قد يؤكد أهمية الجانب المخابراتي في المعارك الحربية، وأنه قد تكون عاملاً مساعدًا في انتصار جيش، وهزيمة آخر.

دخلت الرواية المخابراتية أدبنا العربي في فترة متأخرة من القرن العشرين، وقد يرجع السبب إلى هذا الصراع بين العالم العربي من جانب، والعدو الإسرائيلي من جانب آخر، فهذا اللون الروائي لم يعرف في "الرواية العربية الحديثة إلا مع احتدام الصراع العربي الإسرائيلي، الذي شهد بروزًا لنشاط العدو الصهيوني في مجال الاستخبارات لتحقيق أهداف عسكرية وسياسية، فجاءت الرواية المخابراتية في الأدب العربي استجابة لتلك المتغيرات، وكنوع من المواجهة الأدبية مع العدو."(١)

فمنذ بدايات الصراع العربي الإسرائيلي شكلت حروب الجاسوسية جزءًا أساسيًّا فيه، الذي كان يهدف إلى السيطرة على المنطقة العربية، بحيث يمكن القول إن "برز النشاط الصهيوني في مجال الاستخبارات، وتنظيم شبكات التجسس مترافقًا مع مصلحة القوى الاستعمارية الغربية "(١)

دخلت الرواية المخابراتية أدبنا العربي مع بداية الصراع العربي الإسرائيلي، ونشاط أجهزة المخابرات، وأصبحت تكتسب أهميتها من كونها رواية قضية.

كما أنه –من وجهة نظر الباحث- قد تحمل بذرة من بذور التطور في الفن الروائي ودخول اتجاهات جديدة فيه.

ومن الناحية السياسية، فقد يقصد بالعمل المخابراتي "العمل سرًا، وبادعاء كاذب ليستولي شخص أو ليحاول الاستيلاء على معلومات حيوية لغرض توصيلها إلى الأعداء"(١)

وهنا يزعم الباحث أن الرواية المخابراتية قد تأخذ ملمحًا من ملامح الرواية الوطنية السياسية؛ لأن كلاهما قد يعبر عن مظاهر الصراع مع قوى الاستعمار، وهذا الصراع يلعب دورًا مهمًّا في بناء أحداث الرواية .

والرواية المخابراتية من وجهة نظر الباحث قد تسمى –أيضًا- بالرواية الجاسوسية، ويرى أنها "سميت جاسوسية؛ لأنها أخذت طابع التجسس شكلاً ومرتكزًا أساسيًّا لها، وهى في الغالب تندرج ضمن القص الذي يعتمد وجود المخابرات والمباحث السرية"[١]

والنقطة المهمة هنا، والتي سبق الإشارة إليها هو أن الرواية المخابراتية تعتمد بالدرجة الكبرى على أحداث واقعية بحتة، لكن هذا لا يجعل الباحث ينكر الأهمية الكبيرة لخيال المؤلف في إعادة صياغة هذه الأحداث لكي يحقق بها الحبكة السردية التي يريد من المتلقي أن يصل إليها، وإلا كانت الرواية المخابراتية عبارة عن سرد لأحداث، وهنا لا تفترق عن الوثائق المخابراتية، بل قد تكون الوثائق المخابراتية أكثر دقة، بما أننا ندرك جيدًا أن الجانب المخابراتي لن ينقل التفاصيل كاملة للمؤلف.

ويبقى أن "الإنسان العادي في عالمنا المعاصر، غارق في خياله ضائع بين التقنيات العلمية المعاصرة، وهو بهذا على استعداد لأن يتقبل كل ما يُحكى له عنها تقريبا، ومثل هذا اللون من الروايات يستخدم لإخفاء الواقع، ويفتح أبوابًا للهروب على طريقة الرواية الروسية"[١]

شهدت رواية التجسس كثيرًا من الكُتّاب الذين عملوا في العسكرية، وبخاصة في الاستخبارات العسكرية، أو عملوا في وكالة الاستخبارات مثل الكاتب ماهر عبد الحميد أو نبيل فاروق وغيرهم .

وأخيرًا يبدو أن الرواية المخابراتية في أدبنا العربي ترتبط في نشأتها وظهورها بنشأتها وظهورها في الأدب الغربي؛ ولرصد أوجه التشابه في عوامل النشأة وبيان المؤثرات الأجنبية التي أسهمت في انتشارها وظهورها في بيئتا العربية رغم اختلاف البيئة والعوامل الاجتماعية والسياسية بين المجتمعات تأتي هذه المقارنة بين الروايتين موضوع الدراسة.

أهداف الرواية المخابراتية:

هناك مجموعة من الوظائف الأساسية التي تبرز أهمية الرواية المخابراتية، فقد حظيت باهتمام كبير من الناحية الفنية والنقدية؛ حيث يكون الوفاق بين فكر المؤلف والأيديولوجية التي تتجه إليها الدولة، وتتفق معها مختلف التيارات والاتجاهات السياسية والاجتماعية هو أمر مهمٌّ في الرواية المخابراتية، فقد "قد يكون التوجه الذي تحمله إحدى الروايات السياسية مخالفًا لتوجهات أخرى لها أيديولوجياتها وأفكارها الخاصة دون أن يشكل ذلك كله انسلاخًا من المسؤولية الوطنية، ولكن في هذا النوع من الروايات لا يقبل أبدًا أن يكون هناك تباين في توجهات أو آراء تتعلق بمصلحة الوطن"[١]

لقد كان كتّاب الرواية المخابراتية يضعون مصلحة الوطن أمام أعينهم، فكان حب الوطن والانتماء إليه ينعكس على ملامح الشخصية، وأيضًا ينعكس على مظاهر الصراع داخل هذا العمل الروائي.

وتشكل الرواية المخابراتية أحد مظاهر القومية في الأدب العربي، فهي تعكس قدرة الشخصية في التعبير عن حب الوطن والانتماء له من خلال أحداث الرواية، وتطور الصراع بين الشخصيات داخلها، لأنه إذا كانت "أحداث هذا الاتجاه الروائي وصراعاته تدور في ظاهرها بين جهازي المخابرات المصري والإسرائيلي، فإن تحت هذا السطح صراعًا لا يستثنى أحدًا من الكيان العربي الواحد الذي يعبر عن مفهوم القومية"[١]

وتسهم هذه الروايات في تعزيز الانتماء، والشعور بالمسؤولية الوطنية من خلال عرض الأحداث التاريخية التي تساعد على تعميق ثقة الفرد بوجود حاجز قوي يحمي وطنه من أي تهديد خارجي؛ وقد يعد هذا الأمر من أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور الروايات المخابراتية في أدبنا العربي.

وتقوم أحداث هذه الروايات على استعراض ذكاء الإنسان العربي، وتفوقه المعرفي والمعلوماتي وهما يشكلان جزءًا أساسيًّا من أدوات الصراع بين أجهزة المخابرات العربية والصهيونية، فهذه الروايات

هي بدرجة أو بأخرى تبرز، بل قد "تؤكد عبقرية الإنسان العربي الواعي وذكاؤه الخارق في وجه كل الأساطير التي يفبركها العقل الإجرامي الإسرائيلي ليظهر تفوقه أما م الخصوم"[١]

وهذا الدور المؤثر يتنامى بطبيعة الحال مع الترجمات التي تأخذ طريقها إلى بعض تلك

الروايات، والتعريف بها عالميًّا، وبالأخص أعمال صالح مرسي والدكتور نبيل فاروق التي تُرجمت بعض أعماله إلى الصينية والإنجليزية والفرنسية.

ويزعم الباحث أن هذه الروايات لعبت دورًا كبيرًا في إحداث هزيمة نفسية للعدو الإسرائيلي بعد عرضها وظهورها في وسائل التواصل المختلفة، فنجد مثلا شخصية "رأفت الهجان" الذي نجح في النفاذ إلى شخصيات سياسية وعسكرية مهمة داخل المجتمع الإسرائيلي، وأن يكون معهم داخل بلادهم ليعرف أدق المعلومات السرية، وينقلها إلى جهاز المخابرات المصرية؛ مما أحدث فرحة وانتصارًا عظيمًا عند المصريين، وهو ما جعل صالح مرسي يؤكد أنه "من حق المصريين الآن الاستمتاع بنجاحاتهم التي حققوها"[١]

فقد تشكل أحداث تلك الأعمال دورًا وقائيًّا له أهميته في مواجهة أعمال الجاسوسية، من خلال التعريف ببعض الوسائل والمداخل التي يستخدمها أعداء الوطن في استدراج أبنائه إلى هاوية الخيانة، وهذا ما وعاه رئيس المخابرات العامة المصرية الأسبق "كمال حسن علي" الذي أشار في مذكراته إلى أهمية تلك الأعمال الأدبية والفنية في تعزيز الوعي بالوسائل التي تمثل غطاء لمخططات الجاسوسية"[١] وهذا ما قد يوضح بشكل أو بآخر انتشار الأعمال السينمائية التي تناولت روايات المخابرات مادة لها.

أشهر كتّاب الرواية الجاسوسية في الأدب العربي :

- **ماهر عبد الحميد** :

قد يعد ماهر عبد الحميد هو أول من مهد الطريق لهذا الاتجاه الروائي في أدبنا العربية، وهو ضابط مصري، وأحد جنود حرب ١٩٦٧م، وكان أول عمل أدبي له بعنوان "قصتي مع الجاسوس" وُنشر عام ١٩٧٠ م.

وتقوم أحداث هذه القصة على وقائع حقيقية كان الكاتب بطلها، فقد كان عميلاً مزدوجًا لحساب المخابرات المصرية؛ فهو لا يكتفى بمجرد وصف عملية سرية بل يسرد أدق التفاصيل، والدراسات التي أجريت والأبحاث التي تمت، ثم القرارات الموجهة إليهم، بالإضافة إلى الاتصالات التي كانت تجري بين الحكومات العربية، والتي دارت على أرضها أحداث تشد الأنفاس، وتتسم بالإثارة، وهو يسلط شعاعًا خاطفًا من الضوء على أسرار عالم المخابرات؛ ذلك العالم الغامض والغريب .

وقد تكمن خصوصية هذه الرواية في كونها كُتبت على يد البطل نفسه، لكن على صورة رواية قصصية، فقد "انعكس الهدف الذي ارتبط بظهور هذا الاتجاه الروائي في كتابات ماهر عبد الحميد الأخرى التي توالت بعد ذلك لتمهد الطريق لهذا النوع من الإبداع في الأدب العربي، فكتب "كنت صديقًا لديان" (١٩٧٥)، وهي أيضًا قصة حقيقية استطاع أن يقف على تفاصيلها من بطلها الحقيقي، إلى جانب ما سمح به جهاز المخابرات المصرية العامة من معلومات"[١]

ومن أشهر أعماله في مجال الرواية المخابراتية روايته "جاسوس فوق البحر الأحمر" ١٩٧٧م، وكتاباه المفاجأة: "دور المخابرات في حرب الشرق الأوسط" ١٩٧٤م، و"عملاء من القاهرة" ١٩٧٦م.

- **صالح مرسي:** (١٩٢٩- ١٩٩٦ م)

صالح مرسي من مواليد مدينة كفر الزيات بمحافظة الغربية ، كان كاتبًا وروائيًّا له العديد من الأعمال المتميزة، وهو أشهر من كتب في أدب المخابرات العربية، وساعده في ذلك أنه كان يعمل مع جهاز المخابرات العامة المصرية، فهو يعد من المدنيين الذين عملوا مع المخابرات المصرية.

وعُرف الكاتب الكبير صالح مرسي بإبداعه في كتابة أدب المخابرات في الثمانينات، إذ يملك العديد من الروايات في هذا المجال، لكن تبقى أن روايته عن رأفت الهجان هي الأشهر لا على مستوى النصوص وحسب، بل وعلى المستوى الدرامي؛ حيث قدمت مسلسلاً تلفزيونيًّا تابعه الملايين من العرب، فالبطل هو (رفعت الجمال) يعمل مع المخابرات المصرية، والذي سافر إلى الكيان الصهيوني بغية إقامة علاقات سرية مع قياداتٍ فيه، وجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات المهمة.

ومن أهم أعمال صالح مرسي الروائية "الخوف" (١٩٦٠) و"زقاق السيد البلطي" (١٩٦٣) و"البحر" -من أدب الرحلات (١٩٧٣) و"السجين" (١٩٧٦)، وغيرها من الأعمال التي استلهم تجاربها من طبيعة ارتباطه بالبحر؛ نظراً لطبيعة عمله، حيث قضى فيه فترات طويلة من عمره، فقد عمل مساعد مهندس بالقوات البحرية في الفترة من ١٩٤٨م إلى ١٩٥٥م"[١]

ويمكن القول إن البدايات الأولى لصالح مرسي مع الأدب المخابراتي كان عندما طلبت منه إذاعة صوت العرب "في بدايات ١٩٧٥م أن يكتب مسلسلًا إذاعيًّا عن الجاسوسية، وبناء على طلب الإذاعة التقى الكاتب أحد رجال المخابرات العامة الذي أمده بالوثائق والمعلومات اللازمة ليستعين بها في بناء أحداث تلك الحلقات "[١]

ومعظم أعماله الروائية خولت إلى أفلام ومسلسلات في التليفزيون المصري؛ مثل مجموعته "الصعود إلى الهاوية" ١٩٧٦م، ورواية الحفار ١٩٨٥م، والتي تدور حول تفاصيل تدمير حفار اشترته

إسرائيل للتنقيب به عن البترول في خليج السويس، ورغبتهم في استنزاف ثروات مصر الطبيعية.

واستطاعت أعمال صالح مرسي أن تجعل من الرواية المخابراتية أحد اتجاهات الرواية العربية المعاصرة، وشكلت نموذجًا فنيًّا رائعًا.

- **نبيل فاروق (١٩٥٦ -٢٠٢٠م)**

يعدُّ نبيل فاروق أحد أهم أعمدة الكُتاب العرب في الخيال العلمي وأدب الجاسوسية، وتميزت أعماله في الجاسوسية بالتشويق والإثارة والتنوع، فقد "خطت الرواية المخابراتية في الأدب العربي خطوات واسعة مع كتابات د. نبيل فاروق الذي تميز بغزارة نتاجه الأدبي، وارتباط فئة الشباب والناشئة بكتاباته، وهو ما أسهم في دخول تلك الفئة العمرية إلى قراءة هذا الأدب الذي عرف معه السلاسل الروائية، فقد ارتبط اسمه بسلسلة: "رجل المستحيل" التي امتدت إلى ١٦٠جزءًا"[١]

وتعد سلسلة "رجل المستحيل" من أشهر ما قدمه الكاتب نبيل فاروق ضمن مشروع إصدارات "روايات مصرية للجيب"، الذي تبنته المؤسسة العربية الحديثة منذ منتصف الثمانينيات، وتتناول السلسلة مغامرات رجل المخابرات المصري "أدهم صبري"، الذي يجيد كل أنواع الفنون القتالية وعدة لغات حية، ويجيد مهارات التنكر، ويخوض مهمات يكلفه بها جهاز المخابرات المصري في بلاد العالم المختلفة، متحديا أقوى أجهزة المخابرات، و"تقوم السلسلة التي بدأت بقصته "الاختفاء الغامض" (١٩٨٦م) على شخصية مخابراتية تمتلك قدرات معرفية عالية، ومهارات قتالية خارقة تمكنه من مواجهة كافة الصعاب في التصدي للمخططات العدائية التي يدفعها عن وطنه، وقد عرف بشخصية السلسلة في عددها الأول: (أدهم صبري)... ضابط مخابرات مصري في الخامسة والثلاثين من عمره"[١]

وأسهمت أحداث السلسلة التي بدأت بقصته "الاختفاء الغامض" ١٩٦٠م في إثارة الجمهور وتشويقه، حيث امتزجت المهارة الذهنية بالمهارة الجسدية البدنية، وحاول الكاتب من خلالها إيجاد نموذج "البطل" الذي يجسد الشخصية الوطنية من خلال عرض بعض الأحداث التي تسعى إلى تعزيز مشاعر الانتماء والتضحية من أجل الوطن .

وبجانب هؤلاء الكتاب الثلاثة يوجد العديد من الكتّاب العرب الذين اشتهروا بكتابة هذا النوع من الروايات، فهناك أيضا **اللواء فؤاد حسين** الذي كان يعمل في جهاز المخابرات الحربية، والملقب بصائد الجواسيس، فبعد انتهاء خدمته كتب روايته "الخيانة الهادئة": أول قصة تجسس حقيقية من ملفات المخابرات الحربية، وهناك الكاتب **"أحمد مراد"** في رواية "فيرتيجو" ٢٠٠٧م. وكانت إضافته الإبداعية بأن جعل البطل الرئيس للرواية مجرد شخص عادي، كما أنه لم يكن المجرم أو المحقق أو له علاقة بأي جانب من جوانب الجريمة، بل كان ضيفًا بالصدفة على الأحداث، ولكنه وجد نفسه يكافح في سبيل كشف الحقائق وتحقيق العدالة الضائعة .

المبحث الثاني

رواية " كنت جاسوسًا في إسرائيل ...رأفت الهجان "

للكاتب صالح مرسي

تتكون رواية "كنت جاسوسًا في إسرائيل" من ثلاثة أجزاء نشرها عام (١٩٨٧م- ١٩٩٠م-١٩٩١ م)، وشكلت هذه الرواية نموذجًا فنيًّا ناجحًا في الأدب المخابراتي، يفسر معه تعدد طبعاتها، والنجاح الجماهيري الواسع، حيث تحولت إلى دراما تلفزيونية، وأثرت في الوعي القومي والهوية الوطنية لدى كثير من الشباب الذين شاهدوا هذا العمل العظيم.

وتعد هذه الرواية نقلة نوعية في مسيرة الأدب المخابراتي؛ حيث أكد الكاتب "صالح مرسي" من خلالها وجود هذا اللون في الأدب العربي، فمن خلال تأثره بالروايات المخابراتية في الأدب الغربي استطاع أن يوظف موهبته وقدرته الفنية في هذا الاتجاه، واستطاع أن يصوغ أعمالاً إبداعية رائعة؛ مستمدًا معلوماته من الوقائع السياسية التي يمر بها المجتمع، وهذه الأعمال "جاوزت التقيد بالتفاصيل والحقائق المرجعية؛ إذ اهتمت بالحقيقة الفنية أكثر من اهتمامها بالحقيقة التاريخية، وقامت على إعادة ترتيب الأحداث لتتناسب و"الحبكة" التي تحتفي بعنصر التشويق، بما يستلزمه هذا من حرية التدخل الفني في الوقائع"[١]

كتب "صالح مرسي" هذه الرواية استجابة لمتغيرات الواقع السياسي والثقافي في المجتمع مع بدايات الصراع العربي الإسرائيلي، ومحاولته فرض السيطرة على الشؤون العربية؛ فاستطاع من خلال تلك الرواية أن يعرض قدرة هذا البطل على الصراع، وتحقيق النجاح على العدو من خلال رائعته "رأفت الهجان" التي تندرج ضمن الأدب المخابراتي .

وتدور أحداث الرواية حول البطل "رأفت الهجان"، وهو ليس اسمه الحقيقي، لكنه الاسم الذى اختاره له أحد ضباط المخابرات العسكرية، وكان صديقا له، كما أن "ديڤيد شارل سمحون"، وهو الاسم الذى عُرف به في إسرائيل ليس اسمه الحقيقي أيضًا؛ حيث ذهب إليها في الخمسينيات بوصفه بطلاً من أبطال الصهيونية، وغادرها بعد عشرين عامًا بوصفه واحدًا من أصحاب الملايين، ورجلاً من رجال أعمالها البارزين.

أبرزت رواية "كنت جاسوسًا في إسرائيل: رأفت الهجان" إلى حد ما "كيف استطاع شاب مصري اختراق المخابرات السرية الإسرائيلية (الموساد) كنوع من التحدي الحالم للإنسان العربي في مواجهة الآخر/

الإسرائيلي، بحثًا عن بطولة باتت مفتقدة في الواقع ، وقد تلونت فنيًا بطابع أسطوري يوهم بأنه واقعي"[١]

ومن الشخصيات البارزة في الرواية: شخصية "عزيز الجبالي"، وهذا أيضًا ليس اسمه الحقيقي، وهو ضابط المخابرات الذى تعرف عليه "رأفت الهجان"، وهو في السادسة والعشرين من عمره، ثم فرقهما القدر بعد ذلك، وحدث كل هذا دون أن يلتقيا مرة واحدة، أو يرى أحدهما الآخر، دون أن يتبادلا الحديث إلا من خلال خطابات كتبت بالحبر السرى، أو صفير متقطع لجهاز إرسال أو استقبال.

إنها قصة رجلين من جيل صنع لمصر، وللأمة العربية كلها، معجزات... تحاول بعض قوى الشر الصهيونية أن تطمسها، وتقلل من شأنها.

إن "صالح مرسي" من خلال رائعته "رأفت الهجان" يحاول أن يعبر عن بطولة حقيقية لرجل المخابرات المصرية (رفعت الجمال)، ومن خلال رواية "رأفت الهجان" عرفنا البداية الغريبة التي ارتبط بها إنشاء جهاز المخابرات المصرية، حين أقيم في بقعة نائية على أطراف القاهرة في بناء مهجور من ساكنيه، "وكُتب على المبنى المهجور لافتة مكتوب عليها "إدارة البحوث والإنشاء" دون أن يعرف أحد أو يفهم مدلول هذا الاسم، ولا إلى أية وزارة أو مصلحة حكومية تنتمي تلك الإدارة الغامضة التي لا يعرف أحد ما يدور فيها، ولا يدخلها إلا عدد محدود للغاية من الأشخاص. هذا المبنى الغامض لم يكن في واقع الأمر إلا مبنى "جهاز المخابرات العامة المصرية " الوليد الذي انتقل بعد ذلك إلى حدائق القبة"[١]

ويتحدث الكاتب "صالح مرسي" عن روايته "كنت جاسوسًا في إسرائيل"، ويذكر الظروف التي كُتب فيها تلك الرواية قائلا: "إنها نُشرت كحلقات مسلسلة في مجلة "المصور" و"الشرق الأوسط" قبل أن تتحول لمسلسل تليفزيوني، مضيفا: رحبت جدا بتحويلها لمسلسل حتى تصل للجميع، وكنت سعيدًا جدًا بحالة الوطنية التي أثارها

المسلسل، وقد قابلت "عزيز الجبالي" ضابط المخابرات الحقيقي المسئول عن تجنيد رأفت الهجان للحصول على أكبر معلومات عنه."[١]

وقسم الكاتب الجزء الأول من الرواية إلى عدة فصول، حيث بدأ بالحديث عن وفاة رجل الأعمال الإسرائيلي "ديفيد شارل سمحون"، وهو لم يكن شخصية إسرائيلية عادية؛ بل كان رجل أعمال بارز. توسعت أعماله في السنوات الأخيرة، فشملت مجالات حيوية شديدة الأهمية. كما كانت له علاقات اجتماعية واقتصادية، بل وسياسية على درجة عالية داخل إسرائيل.

وحرص ضابط المخابرات المصرية "عزيز الجبالي" على السفر إلى هناك لحضور جنازته، لأن العلاقة بينهما كانت قوية، ورُتبت له زيارة إلى بريمن، وهي "زيارة قد رتبت... كي يلقي نظرة أخيرة على الفقيد، وأن يُعطى الفرصة كاملة، وفي أمان تام، كي يصلي عليه صلاة الجنازة حسب الشريعة الإسلامية"[١]

ثم ذكر الكاتب بعد ذلك رغبة زوجته في نقل رسالة إلى رئيس جهاز المخابرات المصرية عن طريق صديق لها يدعى "نهاد" تكشف فيها عن السر الذي أخفاه زوجها "ديفيد شارل سمحون" عنها طيلة السنوات التي عاشها معها، وهو أنه كان جاسوسًا يعمل لصالح المخابرات المصرية.

وقد وصلت تلك الرسالة إلى جهاز المخابرات المصرية، وبعدها تم استقبال السيدة "هيلين" أو "فراو سمحون" - كما كان يُطلق عليها نسبة إلى زوجها ديفيد شارل سمحون- في القاهرة، وأخذت تحكي لهم قصتها مع زوجها، وأنه لم يعترف لها بحقيقته إلا لحظة موته قائلا: "لست يهوديا ولست إسرائيليا".

لم تنطق كلمة، بدا لها الأمر فوق كل خيال. كان واضحًا أنه لا يهذي حقا.

"إنني مصري، وأنا أيضا مسلم!"

"ديفيد!"

"وليس اسمي ديفيد!"

وقال هذا ثم راح يلهث ...وبدت في عينيه نظرة ملهوفة.

"اسألي ...اسألي عني جهاز المخابرات المصري ...ال ... الحقيقة عندهم!!"(١)

وكان الأمر مفاجئًا لها، وبخاصة أن زوجها لم يصرح لها بحقيقة أمره إلا قبل وفاته بثواني، وكانت مرتبكة وخائفة عندما عرفت ذلك، وأخذت تسأل رجال المخابرات المصرية عن حقيقة زوجها، واسمه الحقيقي وأسرته ....إلخ.

وقام الضابط "عزيز الجبالي"، بتوضيح كل هذه الأشياء الغامضة لها، وسرد لها باسترجاع خارجي أن زوجها كان طفلاً مستهترًا في بداية حياته، وبعد وفاة والده حاول أخوه الكبير سامي أن يجعل منه رجلاً منضبطًا ومستقيمًا، إلا أنه كان على النقيض من أخيه، فقد كان يهوى المسرح والسينما، وبعد ذلك دخل مدرسة التجارة المتوسطة، وفيها بدأت عيناه تتفتحان على البريطانيين، وأُعجب بطرق كفاحهم. كما تعلم في تلك المدرسة أيضا اللغتين الفرنسية والانجليزية.

يقول عزيز الجبالي في ذلك "دون شك كان رأفت مدللا –هكذا قال لمحسن، وهو يحكي قصة حياته في ذلك المنزل الصغير فوق سطح إحدى العمارات المطلة على ميدان سليمان باشا– لكنه لم يكن فاسدًا... وربما كان للأب بعض العذر في تدليله هو وشريفة، فلقد توفيت أمه، وهو لا يزال في الخامسة، وكانت شريفة في الثالثة... وهكذا تولى إخوته تربيته بعد وفاة أبيه"(١)

وبعد ذلك قابل الفتى الضابط "محسن ممتاز" الذي أخرجه من السجن بعد دفع كفالة مالية، وأجرى الضابط محسن عنه مجموعة من التحريات، وتأكد بعدها أن اسمه هو "رأفت علي سليمان الهجان". كما تأكد من صحة الأسرة التي ينتمي إليها، وطلب منه أن يكون اسمه "ليفي كوهين"، فقال له: "كل الناس من النهاردة، لازم تعرف إن اسمك ليفي كوهين، وإنك يهودي، وكنت هربان من مصر والإنجليز هم اللي رجعوك تاني!"

وجد محسن ممتاز في رأفت ذلك الفتي الحديدي الذي كان يبحث عنه، ولم يكن من المعقول أن يصارحه بطبيعة المهمة التي اختاره لها في البداية، بل كان يروضه، وطلب منه أن يعيش يهوديًا، ويتكلم مع اليهوديين الذين يعيشون في مصر، ويعيش وسطهم، وكانا دائما يتقابلان في قهوة "إستانبيلوس".

وأخذ بعدها يدربه على اكتشاف المراقبة والإفلات منها، وأظهر الفتى قدرة فائقة وعبقرية فذة على الاستيعاب. يقول: "كان الفتى يتقدم بسرعة مذهلة وغير متوقعة... وكان تقدمه هذا مثار مناقشات مضنية بين محسن ممتاز وحسن صقر... ذلك الذي ترك أمر العملية كله لزميله وصديقه"[١]

ومن الأحداث المهمة التي ذكرها صالح مرسي في الرواية مقابلة الفتى للشيخ العجوز الذي راح يتأمل ملامحه بعينين يسيل منهما الدموع والحزن قائلاً له: " لقد مات ديفيد بالتيفود منذ أربع وعشرين سنة... لكنه في نظر الحكومة المصرية لا يزال حيًّا!... سأعطيك اسم ولدي ومنذ الغد سيصبح اسمك "ديفيد شارل سمحون"، ولن نقدم لك طلبًا للهجرة، بل سنقدم طلبًا للسفر إلى الخارج، فإذا ما خرجت من مصر أصبحت في مأمن"[١]

واستعد "رأفت" للسفر إلى إسرائيل، وطلب زيارة شقيقته شريفة قبل أن يسافر، وصور الكاتب صالح مرسي قصة سفره في الجزء الثاني من الرواية الذي كتبه عام ١٩٩٠م، وفي هذا الجزء دخلت القصة

مسارًا محفوفًا بالمخاطر حيث غادر الفتى القاهرة في النصف الثاني من عام ١٩٥٥م، وعندما وصل إلى إسرائيل، وقابل المحامي "يوسف الأزرع" أحس معه بالراحة والاطمئنان "كانت جملة يوسف الأزرع المحامي هي أول بشير له بالسلامة منذ أن عرف حقيقة مهمته من محسن ممتاز... كان الرجل يتحدث إليه على مستوى القادة والفدائيين، والذين بذلوا جهدًا..."(١)

ولم يكن صعبًا على الفتى أن يتسلل داخل المجتمع الإسرائيلي؛ لأنه كان قد تعود على اختراق المجتمعات الغربية منذ أيام تشرده في أوربا وأمريكا، وراح يتجول في شوارع تل أبيب، ولفت نظره أن أغلب شركات السياحة تقع في شارع "بن يهودا". فتحدث مع يوسف الأزرع عن رغبته في تأسيس شركة سياحة في تل أبيب، وأنه يرغب في شريك معه كي يتحمل إجراءات الأمور الإدارية والمالية، وكان شريكه في هذه الشركة هو "جدعون شاباتاي" واختارا سكرتيرة لهما في الشركة هي "استر بلينسكي"، وكان خطيبها "إلياهو جادوسكي" يعمل ملحقًا في رئاسة الأركان الإسرائيلية، وكان الضابط محسن ممتاز يحذره من إقامة علاقة حب معها بسبب عمل خطيبها وخطورته في إسرائيل.

وعن طريق استر دخل الفتى بيوتًا عديدة في إسرائيل، وأقام صداقات مع قوم يشتغلون وظائف مهمة ومتنوعة، وفي حذر شديد كان ينمي علاقاته معهم حتى تحين الفرصة، فيلتقي بالضابط مصطفى عبد العظيم وربما محسن ممتاز ويطرح على أي منهما كل ما يحيط به.

وتذكر الرواية أن المعلومات التي نقلها هذا الجاسوس إلى المخابرات المصرية قد أسهمت في القبض على شبكات تجسس مصرية موجودة في إسرائيل، وأنه نقل للمصريين معلومات كثيرة تكشف بعض الجوانب العسكرية والحربية المتعلقة بأمن إسرائيل واستقرارها؛ بما يمتلك من مهارات وخبرات وقدرة مدهشة على اجتذاب من حوله

والتأثير فيهم، فقد كان يدير واحدة من أقوى شبكات الجاسوسية، ومنظومة مخابراتية رفيعة المستوى، عبر ثمانية عشر عامًا كاملة.

ومن أمثلة تلك المعلومات أنه كتب رسالة إلى المخابرات المصرية تكشف عن خطة مدبرة ضد المصريين، فـ"كانت الرسالة تحوي معلومات غريبة غرابة تفوق الخيال، وكانت المعلومات مشفوعة بمصدرها الذي كان هو نفسه الرائد "إلياهو جادوسكي"، الملحق برئاسة الأركان الإسرائيلية، والذي حكى عن خطة محكمة لعدوان ثلاثي تقوم به كل من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل في الأيام القليلة القادمة!"[١]

وتولى الضابط "عزيز الجبالي" أمر "ديفيد شارل سمحون" بعد "محسن ممتاز"، لكنه وجده يحتاج إلى تدريب مكثف وسريع، فأسند إلى زميله "نديم هاشم" مهمة أن يتولى تدريبه.

وفي هذه الظروف كانت شركة السياحة التي أسسها "ديفيد" في تل أبيب "ماجي تورز" تعاني من الكساد والتعثر، وبخاصة بعد خروج شريكه "جدعون شاباتاي" منها، وكانت "إستر" السكرتيرة هي الوحيدة التي وقفت بجواره رغم كل الأعاصير التي تعرضت لها الشركة نتيجة لكساد سوق السياحة في إسرائيل.

وفي الجزء الثالث من الرواية، والذي الذي كُتب عام ١٩٩١م يذكر لنا الكاتب "صالح مرسي" قصة معرفة "ديفيد" بسيرينا أهاروني، وهى من أشهر الشخصيات في إسرائيل حيث تعرف عليها في الهستدروت، وساعدته في التعرف على بعض الشخصيات المهمة في إسرائيل، و"كانت العلاقة الوحيدة التي سُمح للفتى بأن يقيمها من هؤلاء الذين كان يلتقي بهم في بيت سيرينا أهاروني من العسكريين هي تلك العلاقة مع سجن ألوف دان رابينوفيتش وزوجته كلارا ... ولكن بيت هذه السيدة التي ظلت على علاقة حميمة بالفتى، وحتى نهاية حياته كان عوناً له في تكوين شبكتين من أهم شبكات التجسس، التي عرفتها الحرب الخفية بين المخابرات المصرية والإسرائيلية"[١]

وبعد ذلك أصبحت شركته واحدة من أكبر شركات السياحة في إسرائيل، وتوطدت علاقاته داخل المجتمع الإسرائيلي، ونال مكافأة من جهاز المخابرات المصرية على ما قدمه لهم من معلومات قيمة خلال الفترة السابقة، ولم تكن هناك مكافأة أكبر، ولا أثمن من رؤيته لأهله ووطنه وأحبابه الذين انقطع عنهم ما يقرب من ست سنوات.

وتطور جهاز المخابرات المصرية بعد ذلك، وتم تدريب الفتى على وسائل اتصال جديدة وحديثة تناسب التطور الذي حدث في السنوات الأخيرة مثل أجهزة الاستقبال اللاسلكي وغيرها، وأبدى ديفيد نجاحًا كبيرًا وعظيمًا.

وصور لنا الكاتب الحزن الشديد الذى أصاب "ديفيد" بعد نكسة ١٩٦٧م لدرجة أنه فقد رغبته في الحياة لأنه لم يتهاون في نقل الأخبار، وطلب العودة إلى مصر، وبالفعل قام بزيارة مصر، وبعدها رجع أشد حماسًا مما كان عليه.

استطاع "رأفت الهجان" أن يوفر معلومات حساسة مهدت لانتصار أكتوبر ١٩٧٣م. وتبع ذلك استقراره في ألمانيا، واعتزاله عالم التجسس، والتفرغ لعالم الأعمال، حيث تعرف على السيدة هيلين، وتزوجها وأنجب منها ولدين، وأخيرا أنهى الكاتب روايته بالحديث عن وفاته بعد المعاناة من المرض في عام ١٩٨١م .

لقد كان مواطنًا مصريًّا مخلصًا لوطنه رغم كل التحديات والصعوبات التي واجهها، وكان إنسانًا تتلخص حياته في كلمةٍ له وآيةٍ آمن بها ورددها في كل مناسبة متاحة:

أما الكلمة فهي تعكس رؤيته التي تفسر قدرته على "المغامرة والمقامرة بأعز شيء في الوجود، أي الحياة، فقال: كنت مكرهًا من ناحية على أن أعيش هذه الحياة، وأحببتها من ناحية أخرى لأنها عرض مسرحي مثير".

وأما الآية فهي: "وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ" سورة لقمان آية ٣٤.

ومن خلال هذه الرواية استطاع الكاتب الكبير صالح مرسي أن يُفسح المجال لكثير من الكُتّاب والمبدعين للكتابة والتأليف في هذا النوع من الروايات، وكان لهذه الرواية أثر بالغ في إحداث ضجة داخل المجتمع الإسرائيلي.

المبحث الثالث

صورة البطل في الرواية المخابراتية

من خلال :

- **رواية الجاسوس الذي جاء من البرد " The Spy Who Came in from the Cold" لجون لو كاريه**
- **ورواية "كنت جاسوسًا في إسرائيل"**

لصالح مرسي

احتلت شخصية "الجاسوس" في الأدب الغربي مكانة عظيمة استقرت في أعماق القارئ هناك؛ من خلال مجموعة من الروايات التي كُتبت بصفة خاصة أثناء فترة الحرب الباردة.

وإذا نظرنا إلى الأدب الإنجليزي ، وبخاصة "الرواية المخابراتية" نجد أن رائد هذا الاتجاه في القرن العشرين هو الكاتب **"جون لو كاريه"** (ديفيد جون مو كورنويل) المُلقب بـ(ملك روايات التجسس)؛ لأنه كتب مجموعة رائعة من الروايات عن الجاسوسية.

لكن لم يكن الأدب الإنجليزي وحده هو مَنْ ينشغل بالرواية المخابراتية، لأن هذا اللون من الروايات ظهر في الأدب العربي أيضًا، ويُعدُّ الكاتب **"صالح مرسي"** واحدًا من أهم الكُتّاب الذين أثروا وأسهموا في تطور الحركة الروائية المخابراتية في مصر. كما تعدُّ رواياته علامات مميزة في أدب المخابرات؛ فقد رسم صورة رائعة ومميزة للبطل "رأفت الهجان" من خلال روايته "كنت جاسوسًا في إسرائيل"، ومن وجهة نظر الباحث لم تنل هذه الرواية اهتمامًا كبيرًا في الدراسات النقدية والأدبية، بقدر اهتمام الدراما التليفزيونية بحجة أن هذا اللون من الروايات قد يكون مباشرًا، فيبعد عن نطاق الأدب، لكن يزعم الباحث أن الرواية المخابراتية "لا تتعارض... ومتطلبات الكتابة في الأدب العربي؛ لأنها عكست في جميع مراحلها حب الانتماء والفضيلة والذود عن الحمى، فقد أُخصب الأدب العربي بعديد من الروايات الجاسوسية، لعل أشهرها على الإطلاق ما خلفه صالح مرسي من إنتاج أشهره روايته: (كنت جاسوسًا في إسرائيل: رأفت الهجـان) الصادرة عام ١٩٨٦م، والتي للأسف الشديد لم تنل حظوتها من الدرس النقدي والأدبي"[١]

كانت الفترة التاريخية متقاربة عندما كتب جون لو كاريه (١٩٣١-٢٠٢٠م) رواية "الجاسوس الذي جاء من البرد" " The Spy Who Came in from the Cold" (١٩٦٣م)، وعندما كتب صالح مرسي (١٩٢٩-١٩٩٦ م) رواية "كنت جاسوسًا في إسرائيل" (١٩٨٧م)، ولكن تختلف الأدوات الفنية التي استخدمها كل منهما. كما تختلف الرؤية التاريخية وطريقة رسم الشخصية موضوع الدراسة .

رسم "جون لو كاريه" صورة للبطل "أليك ليماس" الرئيس السابق للجاسوسية في ألمانيا في روايته "الجاسوس الذي جاء من البرد"، وهو عميل بريطاني، يتم إرساله إلى ألمانيا الشرقية بوصفه منشقًا زائف لزرع معلومات مضللة حول ضابط استخبارات ألماني شرقي قوي، وهو مندت.

وتُوجت هذه الرواية بجائزة إدغار "Edgar Award for Best Novel" بوصفها أفضل رواية لعام ١٩٦٥م.

وإذا كان عنوان الرواية "الجاسوس الذي جاء من البرد" يوحي بشيء من الغموض؛ لأنه يرمز إلى الجاسوس الذي يريد الخروج من عالم الجاسوسية وعالم الاستخبارات، وكلمة البرد ترمز إلى الشقاء والتعب والمعاناة، إلا أن الكاتب بنى روايته على مجموعة من الأحداث الواقعية، وغلبت عليه صفة الفنان حين يقدم الأحداث والشخصيات، فيرسمهم في صورة فنية رائعة؛ لأنه دخل عالم الجاسوسية، وعمل خلال الفترة (١٩٥٠-١٩٦٠م) في كلٍّ من جهاز الأمن وجهاز المخابرات البريطانية.

ويأتي الحوار في رواية "الجاسوس الذي جاء من البرد" بوصفه الأداة الفنية الأولى التي يقدم بها الكاتب شخصياته والعمل الروائي كله، وهذا الحوار يوحي لنا منذ بداية الرواية بنوع من الصراع والمقابلة، وهو ما يظهر من خلال حوار المشرف (ضابط المخابرات الإنجليزي) مع ليماس في بداية الرواية عن مقتل أحد عملائه الرئيسيين، والذي كان أيضًا عضوًا في الحوار الاقتصادي الاستراتيجي (كارل ريماك)، لأن ليماس كان يدير شبكة تحوي مجموعة من العملاء مثل: (جورج سمايلي، وبيتر غيلام، وبراين دو جري، ورولنج ستون وكارل ريماك... وغيرهم).

كما قدم الكاتب صورة رائعة لضابط المخابرات الإنجليزي (هانز ديتر مندت)، والذي كان يعمل سابقًا ضابط مخابرات من المستوى الأدنى، ومعروف للسيرك بتورطه في مقتل المسؤول في وزارة الخارجية (صموئيل فينان) قبل بضع سنوات، وبعدها أصبح رئيسًا للمخابرات في ألمانيا الشرقية بسبب استخباراته المضادة الرائعة، وهي مهارة تم إثباتها من خلال تصفيته لشبكة ليماس بأكملها.

وبعد ذلك يزور "ليماس" رئيس التحكم في السيرك، ويعرب عن رغبته في الخروج من مجتمع الاستخبارات و"الخروج من البرد"،

وطلب كونترول منه البقاء "في البرد" لمهمة أخيرة، وبخاصة بعد أن أصبح (مندت) عميلًا مزدوجًا لـSIS. بدأ نائبه (جوزيف فيدلر) يعتقد أن مندت قد يكون مرتدًا، ويمكن أن يكون هدفًا مفيدًا لليماس في هذا المسعى، وفي مقابل ذلك سيتم منح ليماس إجازة للتقاعد من الخدمة من أجل إقناع الألمان الشرقيين بانشقاقه المحتمل، وقام السيرك بخفض رتبة ليماس إلى قسم الشؤون المالية، حيث بدأت تظهر عليه علامات إدمان الكحول والفقر والشقاء.

-البعد الاجتماعي:

أبدع الكاتب البريطاني (جون لو كاريه) في تصوير شخصية "ليماس" المحبط، والذي كان يشعر دائما باليأس والفشل والإحباط تجاه محاولات (مندت) معه ومع عملائه، فيقول أثناء حواره مع المشرف:

"Why? We've got nothing left in East Germany, nothing at all. You just said so--Riemeck was the last. We've nothing left to protect."[١].

ترجمة النص :

"– لماذا؟ لم يبق لدينا شيء في ألمانيا الشرقية. لا شيء على الإطلاق.

لقد قلت لتوك أن ريماك كان الأخير. لم يبق لدينا شيء نحميه "[١]

لقد وظف الكاتب أدواته الفنية ليصور لنا شخصية "ليماس"، وهو يعاني من الخوف والقلق والرعب أثناء أداء مهمته؛ لأنه كان يدرك أن حياته قصيرة، ومصيره إلى الموت طالما أن (مندت) ورجاله يحاصرونه في كل مكان، فيقول :

"Leamas was not a reflective man and not a particularly philosophical one. He knew he was

written off--it was a fact of life which he would henceforth live with, as a man must live with cancer or imprisonment. He knew there was no kind of preparation which could have bridged the gap between then and now. He met failure as one day he would probably meet death."[١]

ترجمة النص :

"لم يكن ليماس رجلاً تأمليًا، وهو ليس فلسفيًا على وجه الخصوص. لقد عرف بأنه مقضي عليه –كانت حقيقة يومية سيعيش معها من الآن فصاعدًا، كما هو حال إنسان كُتب عليه أن يعايش السرطان أو السجن. كان يدرك عدم وجود أي إجراء يمكن أن يسد الفجوة بين الماضي والحاضر . لقد واجه الفشل كما سيواجه يومًا ما الموت"[١]

كما صور الكاتب إحساسه بالضياع والسقوط بعد خروجه من السجن، فيقول :

"I'm down and out, prison experience still fresh, social resentment strong. Fm an old horse, I don't need breaking in; I don't have to pretend they've offended my honor as an English gentleman"[١]

ترجمة النص:

"فأنا ساقط ومبعد، وتجربة السجن لا تزال ساخنة والامتعاض الاجتماعي قوي. أنا حصان عجوز. لا أحتاج إلى الترويض. وليس علىَّ أن أتظاهر بأنهم مسوا شرفي كسيد إنجليزي." (١)

ويصور "جون لو كاريه" شخصية ليماس من خلال ذكر أوصافه الخارجية التي تدل على قوته الجسدية، والتي تتطلبها طبيعة العمل في مهنة الاستخبارات، فيقول:

"Leamas was a short man with close-cropped, irongray hair, and the physique of a swimmer. He was very strong. This strength was discernible in his back and shoulders, in his neck, and in the stubby formation of his hands and fingers"(١)

ترجمة النص :

"كان ليماس رجلاً قصيرًا له شعر أشيب رمادي، وبنية سباح. كان قويًّا جدًّا. هذه القوة بدت جلية في ظهره وكتفيه، وفي رقبته، وفي التكوين الخشن ليديه وأصابعه "(١)

إن التركيز على المظهر الخارجي للشخصية، إحدى الوسائل الفنية التي يستخدمها الكاتب في رسم شخصياته؛ فهو يرصد حركات أبطاله، ويجعلها عنصرًا من عناصره الفنية في نقل الحدث وملامح الشخصية، وذلك لتقريب المتلقي من الشخصية، ولجعله ينظر إلى الشخصية بوصفها تمثله، وقد يُعنى بها هنا أن الشخصية تكون مقنعة بالنسبة للمتلقي، ولقد أحسن السارد حين جعل وصف الشخصية يأتي من شخصية أخرى داخل الحدث القصصي، وذلك عن طريق الحوار لأن رسم الشخصية في الرواية الحديثة يحكمه "مفهوم مغاير، لا يرسمها عن الوصف التقليدي، بل يأخذها من خلال الحوار الداخلي/ أو رؤية الآخر، أو عبر الفعل الذي يقع بلا تفسير في مجرى الحياة،

والعلاقات، ولا يفهم إلا عبر السياق الروائي الذي يُظْهِر الدلالة تدريجيًّا"[١]

ويصف الكاتب شخصية ليماس بالغموض، وعدم الوضوح تجاه من يتعاملون معه، وهذه طريقة جون لو كاريه في كثير من أعماله، لأنه يرسم شخصياته في صورة غامضة تحتاج إلى تفسير من القارئ وجهد منه حتى يفهمها جيدًّا، ويتعرف عليها، فيقول :

"The stewardess thought he was interesting. She guessed that he was North of England, which he might well have been, and rich, which he was not. She put his age at fifty, which was about right. She guessed he was single, which was half true"[١]

ترجمة النص:

"حسبته المضيفة رجلاً مهمًّا، وخمنتُ أنه من شمال إنجلترا، وربما كان كذلك، وظنته غنيًّا، لكنه لم يكن كذلك، وقدرت عمره بالخمسين، وكان تخمينًا قريبًا إلى الحقيقة. كما خمنت أنه كان أعزب، وكان ذلك نصف الحقيقة."[١]

كما يؤكد الكاتب غموض شخصية ليماس أيضًا من خلال علاقته بمن حوله من زملائه في السجن، فيقول:

" He was contemptuous of his celimates, and they hated him. They hated him because he succeeded in being what each in his heart longed to be: a mystery. He preserved from collectivization some discernible part of his personality; he could not be drawn at moments of sentiment to talk of his girl, his family or his children."[١]

الترجمة :

"كان يحتقر زملاء زنزانته، وقد كرهوه. كرهوه لأنه نجح في أن يكون ما كان يتوق إليه الجميع في دواخلهم؛ شخص غامض. فقد حجب عن المجموعة جزءًا مهمًّا من شخصيته. ولم يستطيعوا جذبه في لحظات العواطف للتحدث عن فتاته أو عائلته أو أطفاله."[١]

وربما تكون هذه هي أولى النقاط الفارقة بين شخصية "ليماس" عند "جون لو كاريه"، وشخصية رأفت الهجان عند صالح مرسي، لأنه إذا كان السجن هنا قد يدل على الذل والمأساة والمعاناة والشعور بالخوف، فهو مكان لتحطيم الذات وقتل قيم الراحة والطمأنينة. كما أنه نقطة انتقال من الحرية إلى العزلة، فإن شخصية "رأفت الهجان" قد تعرضت للسجن أيضًا في بداية حياتها إلا أن شخصيته تختلف عن شخصية ليماس؛ لأنه كان يتميز بشخصية جذابة قادرة على اكتساب المعارف والأصدقاء، ويصف الكاتب (صالح مرسي) شخصيته قائلاً:

"فإذا كان رأفت الهجان يعيش في إسرائيل منذ ثلاثة أعوام، فلابد – كأمر طبيعي يضاف إلى شخصية الفتى الجذابة وقدرته على اكتساب المعارف والأصدقاء– أن يكون قد صنع لنفسه محيطًا أو مجتمعًا يتحرك فيه بحرية وثقة."[١]

ولم تخل الرواية من الوقفات الوصفية، بل كانت حاضرة في كل مواضع الرواية أو مقاطعها؛ لأنها كان تخدم الكاتب في تعطيل وتيرة السرد، ومنح القاري فرصة في الاستمتاع بالقراءة حتى لا يشعر بالملل، بل بالتشويق والحماس والمتابعة، كأن الكاتب يقوم بعملية جذب وإغراء القاري لمتابعة الرواية من خلال أسلوب التشويق والمتعة والجذب، ونلحظ هذا التشابه بين الكاتبين (جون لو كاريه وصالح مرسي) في الروايتين موضوع الدراسة.

لأنه إذا كانت "الوقفة الوصفية هي كل ما يحدث من توقفات وتعليق للسرد، بسبب لجوء السارد إلى الوصف والخواطر والتأملات "[١] مما

قد يعني أنها قد تضر بالعمل السردي، فإن الباحث في وقفات جون لو كاريه وصالح مرسي، يرى أنه قد أحسنا فيها، وبخاصة أنه –كما سبق القول- كانت من شخصيات داخل العمل السردي، وليست من المؤلف ذاته، فإنها كانت مفيدة، ولم تكن تمثل وقفات مملة بالمعنى الذي يظهر عندما تكون من السارد الذي أصبح في هاتين الروايتين مجرد صوت داخل العمل السردي، وليس له هذه السلطة على باقي شخصيات الحدث.

كما صور جون لو كاريه ليماس محتالاً، ويحتاج إلى عمل كي ينفق منه، وبخاصة بعد انتهاء عقده، وكان يشعر بالضياع، فلجأ إلى الاحتيال واقترض أموالاً من السكرتيرات اللاتي يعملن معهن، يقول الكاتب:

" He developed small dishonesties, borrowed insignificant sums from secretaries and neglected to return them, arrived late or left early under some mumbled pretext."[١]

ترجمة النص :

"ارتكب احتيالات صغيرة، واقترض مبالغ ضئيلة من السكرتيرات، وأهمل إعادتها. كان يصل متأخرًا أو كان يغادر مبكرًا بحجة غير مفهومة "[١]

ونلاحظ أن الكاتب يمزج بين السرد والحوار في الرواية؛ وذلك لتوضيح سمات الشخصية أمام القارئ، وعرض بعض التفاصيل عنها بأسلوب التلخيص، فالبنى السردية قد "تتضمن... تلخيصات للوقائع والأحداث، وهو سرد أيام عديدة، أو سنوات من الشخصية دون التفصيل في الأفعال والأقوال."[١]

كما يعترف ليماس بفقره أيضًا من خلال حديثه مع "كاردن" الضابط الذي كان يستجوبه أمام المحكمة، فيقول:

Tell me," he began, "are you a man of means?" "Don't be bloody silly," said Leamas shortly. "You know howl was picked up." "Yes, indeed," Karden declared, "it was masterly. I may take it, then, that you have no money at all?" "You may."[١]

الترجمة:

"قل لي، هل أنت رجل غني؟

قال ليماس باختصار: " لا تكن ساذجًا. أنت تعرف كيف تم التقاطي."

أعلن كاردن: نعم كانت عملية رائعة حقًا. أفهم إذن أنك تسمح لي بالقول بأنك لا تملك مالا على الإطلاق."

نعم. أسمح لك بذلك."[١]

كما نلاحظ أوجه التشابه بين تلك الصورة التي رسمها " جون لو كاريه" لليماس، والصورة التي رسمها الكاتب "صالح مرسي" لرأفت الهجان عندما كان يعيش حالة من الشقاء والضياع والفقر، وكان يحتال من أجل الحصول على المال مما تعرض للسجن، واستمر معه هذا الإحساس بالفقر بعد سفره إلى إسرائيل، فيقول الكاتب واصفًا حالته، وهو يسير في شوارع إسرائيل:

"تمنى في لحظة أن يأخذوه ويعدموه وينتهي كل شيء، وتنتهي تلك الحياة التي لم يعرف فيها سوى العذاب والألم والقلق... راح يضرب في الشوارع فاقد الحيلة ممزق الوجدان... انحدر به الطريق نحو الميناء، فغسلت وجهه نسمة هواء ذكرته بالإسكندرية."[١]

كما وصفت زوجته "هيلين سمحون" حياته بالشقاء والتعب أثناء حوارها مع ضابط المخابرات "عزيز الجبالي" قائلة: "لقد كانت حياته شاقة بكل المعاني!"[١]

وكان ليماس يحفز نفسه على خوض المهمة المكلف بها رغم الصعوبات التي واجهها ، وكان يتذكر قصص البطولة التي تقوي من عزيمته وتزيد من إرادته على التحدي ، وخوض المعركة ضد الأعداء خاصة بعد حديث المشرف معه وتحفيزه له على أداء المهمة فيقول الكاتب :

"One thing I can promise you: it's worth it. It's worth it for our special interest, Alec. Keep him alive and we've won a great victory." He didn't think he could stand torture. He remembered a book by Koestler where -the old revolutionary had conditioned himself for torture by holding lighted matches to his fingers."[١]

الترجمة :

"شيء واحد أستطيع أن أعدك به إنه أمر يستحق المعركة. يستحق من أجل مصلحتنا الخاصة يا أليك... لم يعتقد أن بإمكانه تحمل التعذيب، وتذكر كتابًا من تأليف كوستلر حيث يذكر فيه كيف أن الثوري القديم كيَّف نفسه على التعذيب بوضع عيدان الثقاب مشتعلة على أصابعه".[١]

فيرسم لنا الكاتب صورة لشخصية ليماس؛ تلك الشخصية التي تعبر عن تحمله للمسؤولية، ورغبته في إنهاء المهمة المكلف بها، ووعيه السياسي والاجتماعي بها، وهو الأمر الذي يؤكد أن هذا النوع من الرواية يؤكد على أمرين مهمين في فن السرد؛ فأولاً تتميز هذه "النصوص... بأدبيتها، وانحيازها إلى عالم الرواية الرحب"[١]، وثانيًا

تؤكد "امتلاكها لوعي اجتماعي وسياسي يقود إلى رؤية ثقافية يحكمها التشويق، وحس البحث عن حقيقة ما وسط شراسة الواقع، وغزارة أسباب الكذب والخداع، وعجز الإنسان عن إدراك السلام والطمأنينة."[١] وهو بهذا يؤكد أهمية تمسك البطل في هذا النوع بهذا الحس الوطني الذي يدفعه إلى مجاراة الآخرين في هذا الكذب والخداع من أجل الوصول إلى هدفه.

ونلاحظ أوجه التماس بين صورة ليماس وصورة رأفت الهجان الذي كان يتحمل المشاق والصعاب من أجل وطنه، ويظهر ذلك من خلال إصراره على مهمته رغم الحالة النفسية السيئة التي عانى منها بعد هزيمة ١٩٦٧م، بسيطرة إسرائيل على سيناء، ورغبته في العودة إلى مصر فيقول في تصوير هذا الصراع النفسي من خلال الحوار مع ضابط المخابرات "نديم هاشم":

"اوعوا تنسوا إن سيناء دي بلدي، وطني... ومحدش حايقدر يجيب لكم كل حاجة عنها زيي!"

-" من غير حماس يا رأفت المسألة عاوزة تفكير!"

-"ده مش حماس يا نديم بيه صدقني!"

ثم فجأة هتف في ضيق:

-"لأ. أنا مش حاسيبهم يتهنوا بيها!"[١]

"لأ. أنا مش حاسيبهم يتهنوا بيها"، هذا القول من رأفت الهجان قد يوضح هذا الإحساس الوطني منه تجاه وطنه، ومدى تحمله بالمسئولية. تلك المسئولية التي جعلته يشعر بقدرته على تحرير سيناء وحده، لدرجة أنه لن يترك إسرائيل تتمتع بسيناء.

يستخدم صالح مرسي في عرض سمات شخصية رأفت وملامحها لغة تمتزج فيها الفصحى بالعامية، وقد يرجع ذلك إلى أن هذا النوع من

الكتابة يمجد القيم الوطنية والدوافع النبيلة في التضحية من أجل الوطن والقومية "ومن أجل أهداف نبيلة لا تتقاطع مع المعطيات العقدية الإسلامية، ولا الأعراف الاجتماعية، ولست أريد بهذا التوصيف إلا ما سمي بالرواية الجاسوسية؛ التي عدَّها الكثير من الدارسين صنفًا من أصناف الكتابة البوليسية، فقط لأنها تستمد من الكتابة البوليسية وجود الجريمة أو التحقيق."[١]

تستمد الرواية الجاسوسية من الرواية البوليسية وجود الجريمة أو التحقيق أو وجود لغز ما في أحداثها، لكنها تختلف عنها في تعبيرها عن أحداث واقعية تعكس القيم الوطنية والتضحية من أجل الوطن، وهو ما يظهر في روايتي "جون لو كاريه" "الجاسوس المستجير من البرد"، وصالح مرسي" "كنت جاسوسًا في إسرائيل"، وهو ما يظهر في النقطة البعد الوطني عند بطلي الروايتين.

-البعد الوطني:

ظهرت في النصف الثاني من القرن العشرين أحداثًا سياسية كثيرة، كالحرب الباردة والانقسامات الإقليمية لكثير من الدول الغربية؛ وهذا الصراع بين الكيان الصهيوني والدول العربية بعامة، وهو ما أدى إلى سيطرة الطابع السياسي والوطني والتاريخي على الأعمال الأدبية.

وإذا كان الفرض الأولي لروايات المخابرات أنها تفترض وجود الحس الوطني في الرؤية العامة لهذا النوع من الروايات، وبالتالي فهو ما قد يظهر عند شخصيتي "ليماس" و"رأفت الهجان"، لكن هناك ملاحظة أولى وجدها الباحث، وهي وجود أوجه اختلاف بين شخصية "رأفت الهجان"، وشخصية أليك ليماس؛ لأن رأفت كان شديد الشوق لوطنه أكثر من الصورة التي ظهر عليها ليماس، وتكرر ذلك كثيرا في الرواية؛ فقد كان يحب وطنه حبًّا سيطر على كيانه، ودفعه ذلك إلى التحمل والصبر لأداء مهمته، وكان يتذكره دائما، ويتشوق إلى معرفة الأخبار التي تحدث في بلده، ويصور الكاتب ذلك من خلال حديثه مع ضابط المخابرات "نديم هاشم" الذي كان يدربه، فيقول:

" ومصر؟

فوجئ نديم بالسؤال، فاستدار إليه قائلاً:

-مصر بخير. بدأنا نبنى البلد بعد اللي حصل في ١٩٥٦م، والبركة فيك.

عندما قال نديم جملته الأخيرة ، كان موقنًا بأنه **أجهز على الفتى تمامًا**، واجهه حاملاً إليه كأسًا آخر من الليمون، فنهض رأفت ودمعه يتحدر على وجنتيه، مد يده إلى الكأس هامسًا:

-ممكن أطلب من سيادتك طلب ؟

-قوي !

-احكي لي عن مصر شوية!"[١]

ما ظلل بالبنط الغامق يبرز هذه الوطنية القوية من رأفت تجاه بلده "مصر"، ويبرز إلى أي مدى إدراك "نديم هاشم" لهذه الوطنية، وقدرته على استغلالها في توجيه رأفت إلى ما يريده، ومن هنا يُختم الحوار بسؤال رأفت لنديم هاشم بأنه يريد أن يسمع عن مصر، وهو أمر قد يوضح عدم الملل من سناع اسم مصر لدى رأفت، ويرى البحث أن الرواية المخابراتية في العالم الثالث، ومنها مصر حاولت "تصوير الجانب المشرق للمجتمعات الفقيرة والمظلومة التي لا يبخل أفرادها ولا يتأخرون عن فداء وطنهم وقوميتهم في أحلك الحالات"[١]

وهو الأمر الذي يختلف عن تعامل "ليماس" في رواية "الجاسوس المستجير من البرد"، والذي كان يدرك جيدًا مدى قوة جهاز مخابراته، وبالتالي ثقته القوية فيه وتعامله مع عملائه بدقة وذكاء فيقول:

"I thought Control must have a bloody good source, but I never saw the material so I don't know. I didn't

like the way it was done-it was too high-powered, too complicated, too cleve."[١]

الترجمة :

"اعتقدت أن المشرف لابد، وأنه كان لديه مصدر جيد، لكنني لم أر المادة، لذلك فأنا لا أدري. لم أحب الطريقة التي جرت بها، فقد كانت تدار من جهات عليا، شديدة التعقيد والذكاء"[١]

كما يشير ليماس أيضًا إلى قوة جهاز المخابرات البريطاني أمام مندت ورجاله أثناء حديثه مع فيدلر، فيقول:

"You wouldn't think that a man whose photograph and personal particulars were filed at the Foreign Office as a member of a Foreign Mission would have a chance against the whole of British Security." "From what I hear," Leamas said, "they weren't too keen to catch him anyway."[١]

الترجمة :

"لا تظن أن رجلاً وضعت صورته، ومتعلقاته الشخصية في ملف وزارة الخارجية، كعضو في مفوضية أجنبية يمكن أن تكون له فرصة مقابل جهاز الأمن البريطاني بأكمله. مما يتناهى إلى سمعي أنهم لم يكونوا تواقين جدًا إلى الإمساك به على أية حال"[١]

وقد يدل ذلك على انتمائه وحبه لوطنه الذي يحارب من أجله، لكن لم يصرح الكاتب بذلك لأن أبرزه من خلال هذه الثقة المستمدة من قوة هاز المخابرات البريطاني، وهو ما يؤكد هذه النقطة السابق عرضها بأن رأفت الهجان يحب البلد رغم ضعفها، بينما يحب ليماس البلد لثقته في قوتها.

ونلاحظ وجهًا من أوجه التماس بين جون لو كاريه وصالح مرسي حين صور لنا صالح مرسي قوة جهاز المخابرات المصري ورجاله في التعامل مع عملائه، والتعامل مع الأعداء بالحيلة والعبقرية والذكاء، وعرض الكاتب ذلك بصورة مشوقة وجذابة، وهو ما ظهر من حوار نديم هاشم ورأفت الهجان السابق عرضه، والذي فيه أوضح الباحث هذه القوة النفسية من نديم هاشم، وقدرته على التحليل النفسي لشخصية رأفت أمامه، وقد تمثل هذه القوة من جهاز المخابرات طبيعة في "هذا النوع من القصص الذي تقوم أحداثه على وسائل التشويق الدرامي والصراع بين طرفين بما يوفر معه مقومات الإثارة الفنية، والحكي المشوق لتتبع مسار السرد بما فيه من أجواء الترقب، فضلًا عما ترتبط به أحداث تلك الأعمال من إثارة مشاعر الحماسة الوطنية؛ بما يسهم بشكل كبير في شغف المتلقي بها."(١)

هذا الطابع الوطني في الرواية المخابراتية قد يكون هو نقطة التميز بينها وبين الرواية البوليسية، لأنه إذا كانت الرواية المخابراتية قد انبثقت من الرواية البوليسية، فإنها اختلفت عنها في الاهتمام بسر الوقائع الحقيقية، والتركيز على الجوانب الوطنية والقومية؛ لأن الكتابة البوليسية تعتمد على المجرم، والجريمة والمحقق؛ حيث كانت "الجريمة هي نتاج العصر بإيقاعها المجنون المليء بالغموض والدم."(١)

لكن صالح مرسي رسم صورة أخرى مغايرة لصورة شخصية ضابط المخابرات، وذلك من خلال حسن تعامل ضابط المخابرات مع الشخصية التي يجندها ويدربها، فعندما طلب منه رأفت العودة إلى مصر بسبب حالته النفسية السيئة، نجد نديم هاشم يتبع أسلوبًا متميزًا في التعامل معه، لأنه كان يدرك أنه رجل يغامر بحياته كلها من أجل حب الوطن، وأنه يتسم بالعناد الشديد، ويحتاج إلى عنصرين لا بد من توافرهما حتى يستطيع النفاذ إلى قلبه وعقله؛ هما الجد الشديد، والفهم الذي يقوده إلى تفاهم كامل ومطلق.

قال نديم هاشم: "ضابط الخدمة السرية لا بد أن تكون له مقومات خاصة، أهمها على الإطلاق... هي رغبته الأكيدة والصادقة في فهم من يتعامل معهم من الناس، خاصة من كانوا في موقع كموقع رأفت الهجان"[١]

وهو عكس الصورة التي صورها ووصفها جون لو كاريه لليماس، والذي كان يميل إلى الخداع والاحتيال في تعامله مع المحيطين به سواء مع ضباط المخابرات أو العملاء الذين يجندهم وذلك بحكم خبرته، ولقناعته أن هذه الأشياء يتطلبها العمل مع المخابرات، فيقول على لسان فيدلر:

"it is a matter of experience, of professional _expertise_, it is a facility most of us can acquire. But while a confidence trickster, a play-actor or a gambler can return from his performance to the ranks of his admirers, the secret agent enjoys no such relief. For him, deception is first a matter of self-defense. He must protect himself not only from without but from within, and against the most natural of impulses."[١]

الترجمة:

"إنها مسألة خبرة ، خبرة مهنية ، إنها مهارة يستطيع معظمنا اكتسابها، لكن في الوقت الذي يستطيع فيه محتال سلب الناس أموالهم بعد كسب ثقتهم، أو ممثل أو مقامر العودة من عرضه إلى صفوف معجبيه، فإن العميل السري لا يتمتع بمثل هذه الراحة، وبالنسبة له فإن الخداع هو قضية دفاع عن النفس أولاً. ويجب أن يحمي نفسه ليس من الخارج، فحسب بل من الداخل كذلك، ومن معظم الدوافع الطبيعية."[١]

وظهر ذلك أيضًا في شخصية مندت الذي كان يعمل جاسوسًا لصالح المخابرات البريطانية، فقد كان يعامل ليماس بقسوة وعنف أمام فيدلر حتى لا ينكشف أمره، فيوضح في ذلك أن ليماس كان يفضل العودة إلى وطنه، فيقول:

"Leamas didn't dwell on that possibility. He did not want to know. In matters of that kind he was wholly uninquisitive: he knew that no conceivable good could come of his deductions. Nevertheless, he hoped to God it was true. It was possible, just possible in that case, that he would get home."(١)

الترجمة :

"لم يتوقف ليماس عند هذا الاحتمال، ولم يرغب في أن يعرف. ففي قضايا من ذلك النوع، كان غير ميال للتساؤل كليًا. كان يعرف أن لا خير يمكن أن يأتي من استنتاجاته. مع ذلك تمنى من الله أن يكون ذلك صحيحًا. كان من الممكن فقط في تلك الحالة أن يعود إلى الوطن"(١) وهذه الرغبة في العودة إلى الوطن قد تكون نقطة فارقة بين شخصية البطل عند صالح مرسي "شخصية رأفت الهجان" الذي فضل البقاء في إسرائيل رغم حالته النفسية، وذلك من أجل مساعدة المخابرات المصرية في حربهم مع إسرائيل، وهذا البطل عند جون لو كاريه في شخصية "ليماس" الذي كان يفضل أن يعود إلى وطنه هروبًا من الأزمات التي يتعرض لها، وهو ما يجعل الباحث يؤكد بروز الحس الوطني في البطل "رأفت الهجان" عنه في شخصية البطل عند "ليماس"، وذلك رغم قوة جهاز المخابرات البريطاني الذي صوره "جون لو كاريه" في أكثر من موضع في الرواية، ومنه كشف فيدلر أمام المحكمة حقيقة عمل مندت، وبراعته في خداعهم، فيقول واصفًا جهاز المخابرات البريطاني بحسن التدبير والتعامل مع أعدائهم:

"Is it not consistent with their record of sabotage, subversion and human trafficking that the British should devise this desperate plot? What other course lies open to them now that the rampart has been built across Berlin and the flow of Western spies has been checked? We have fallen victim to their plot; at best Comrade Fiedler is guilty of a most serious error; at worst of conniving with imperialist spies to undermine the security of the worker state, and shed innocent blood."[١]

الترجمة :

"أليس من الطبيعي، وهم أصحاب سجل في التخريب والهدم والمتاجرة بالإنسان، أن يقوم البريطانيون بتدبير هذه المؤامرة البائسة؟ وأي طريق آخر أمامهم بعد أن شيدوا السور عبر برلين، وتم إيقاف تدفق الجواسيس الغربيين؟ لقد وقعنا ضحية لمؤامرتهم، وفي أفضل الأحوال، فإن الرفيق مندت مذنب بخطأ خطير جدا، وفي أسوأ الأحوال مذنب بالتواطؤ مع جواسيس إمبرياليين لإضعاف أمن دولة العمال وسفك الدماء البريئة."[١]

لكن ليماس في استخدامه لوسائل الخداع قد يتشابه مع شخصية رأفت الذي كان يميل إلى وسائل الخداع والمكر في أداء مهمته، فيقول في محاولة خداع من يراقبونه:

"ذهب الفتى في الموعد تمامًا، وكان ذهابه أيضًا يخضع لعمليات مركبة ومعقدة. دار حول البيت، ثم عاد إلى الشارع، ثم دخل بيتًا آخر، ثم خرج كمن أخطأ العنوان، حتى إذا اطمأن تمامًا دلف إلى واحدة من تلك العمارات الشاهقة التي تطل على البحر في جنوا."[١]

وقد يعود ذلك إلى التزام رأفت بالتعليمات وحرصه الشديد على تنفيذها، وهو الأمر الذي كان سببًا في انتصاره على جهاز المخابرات الإسرائيلي، ونجاحه في مهمته، ويصور الكاتب إعجاب حسن القطان به قائلاً: "لم يستطع حسن القطان أن يخفي إعجابه بالفتى، وسعادته بالتطور السريع والمفاجئ الذي حدث، لا لتصرفاته فقط، بل ولشخصيته أيضا..."[١]

استطاع رأفت الهجان أن يجند مجموعة من العملاء، وأن يكون شبكة في إسرائيل مكونة من شخصيات قوية، ولها مكانتها الخطيرة هناك، فكان منهم العسكريون، ومنهم من يعملون في السياسة أو الاقتصاد، وكان يتعامل معهم بعبقرية وذكاء.

- **البعد العاطفي والوجداني**:

يبدو أن أوجه التشابه بين شخصية "ليماس" التي رسمها كاريه في روايته، وبين شخصية "رأفت الهجان" التي رسمها صالح موسى، من حيث سيطرة الجانب العاطفي عند كل منهما، وعلاقتهما بالمرأة واضحة بشكل كبير، لدرجة أن الباحث يرى أنها قد تكون سمة عامة في الرواية المخابراتية، وهي أن البطل في هذا النوع من الرواية قد يتصف بالعلاقات الغرامية المتعددة، وهو ما صوره "كاريه" في علاقة "ليماس" بـ"إليزابيث"، فقد أحبها، وهي الفتاة التي كانت تعمل معه في المكتبة، وتعلق بها، لأنها كانت تهتم به، وصور لنا الكاتب حزنها عندما سافر، وتركها، فيقول:

"He hardly spoke at supper, and she watched him, her fear growing until she could bear it no more and she cried out suddenly, "Alec.. . oh Alec. . . what is it? Is it good-bye?"[١]

ترجمة النص :

"نادرًا ما تكلم أثناء العشاء. راقبته، وتصاعد خوفها إلى أن صار من الصعب عليها تحمله، وانفجرت باكية، وقالت: "أليك.. آه يا أليك. ما الأمر هل هو وداع؟"(١)

وتذكرها ليماس أيضًا عنما كان في السجن، ونلاحظ أن الكاتب لم يهتم كثيرًا بوصف المشاعر الرومانسية التي تسيطر على شخصياته في الرواية، فصورها غامضة، وهو الأمر الذي يؤكد أن المشاعر الرومانسية لم تكن هي المقصودة في هذه العلاقة، بل المقصود هي العلاقات الغرامية بينهما.

وأحب رأفت سكرتيرة مكتبه "إستر بلينسكي"، التي كانت تحبه، وتهتم به كثيرًا، وعبر رأفت عن حبه لها كثيرًا في الرواية. يقول الكاتب:

"عندما انتهى من الخطاب رفع رأسه، فإذا إستر بلينسكي تنظر إليه في عتاب صارخ، لم يكن هذا جديدا عليه، وإن كان الأمر أصبح يحيره كثيرا.. كان موقنًا أن الفتاة قد وقعت في حبه، وأن الغيرة أصبحت تأكلها أكلاً. لم يكن هذا ما يعنيه بقدر ما كان يعنيه أن قلبه كان يخفق إشفاقًا على نفسه أولاً."(١)

و"إشفاقًا على نفسه" التي أنهى بها الكاتب المشهد قد توضح أن مشاعر رأفت كانت كما صورها صالح مرسي، وهي أن نقطة ضعفه تكمن في حبه للنساء، وتعاطفه مع المرأة كبيرة، وهو بذلك يفترق عن شخصية ليماس، حيث استخدم ليماس المرأة، وعلاقاته العاطفية لمصالحه الشخصية. ويبدو ذلك عندما سأله محسن ممتاز عن الفتاة التي كانت معه، فقال:

-مين اللي كانت بتتعشى معاك في المطعم اللي على البحر يوم الأربع اللي فات في تل أبيب ؟!

توقف الفتى عن المضغ فاغر الفم ذاهلاً... ابتسم محسن متسائلاً:

-ايه مالك ؟!

قفز الفتى من مكانه صائحًا في احتجاج:

-ما هو أنا مش حاعيش ملاك يا محسن بيه !"[١]

ويرى الباحث أن اختلاف القيم والعادات بين المجتمعات قد يؤثر على سلوك الشخصية، وهذا ما لوحظ بين شخصية ليماس وعلاقته بإلز، وشخصية رأفت التي تضعف أمام المرأة، لأن "المصادر والمنابع بين الأدب العربي والآداب الغربية يجعل من العسير خضوع الأدبين لمقاييس واحدة، أو لقوانين واحدة، والمعروف أن الآداب الغربية جميعها تستمد مصادرها من الأدب الهيليني والفلسفة اليونانية والحضارة الرومانية... ويختلف اختلافًا واضحًا عن الأساس الذي يقوم عليه الأدب العربي الذي استمد مصدره أساسًا من القرآن الكريم والإسلام والقيم."[١]

وعن علاقة رأفت الهجان بشقيقته "شريفة"، فقد يحبها حبًّا كبيرًا، وكان يتذكرها دائمًا، ويصور ذلك بقوله: "استغرق رأفت الهجان طوال الطريق فيما كان مُقدمًا عليه. لم يقرأ كتابًا، ولا صحيفة، ولا مجلة فقط... راح يدخن السيجارة تلو السيجارة... كان كلما أمعن في التفكير أحس أن قراره بالعودة إلى مصر لابد، وأن يكون نهائيًّا، وكان الدمع يصعد إلى عينيه كلما تذكر شريفة."[١]

ومن الشخصيات النسائية التي قابلها أثناء زيارته لمصر شخصية "أم حسني" الخادمة التي ذكرته بأمه التي فقدها في صغره، وحُرم من مشاعر الحب والحنان، وحين طلبت منه أن يأكل استجاب لها. يقول:

"قال رأفت الهجان إنه وسط كل أحاسيس المرارة سطع في وجدانه إحساس خاص بأنه يجلس قبالة أمه، وأن عليه أن يطيع دون مناقشة. قال "حاضر" دون تفكير أو تدبير للموقف، خرجت الكلمة من بين شفتيه في استجابة فورية."[١]

ويرى الباحث أن هذه الشخصيات النسائية "شريفة"- "أم حسني" التي قابلها رأفت في زيارته لمصر أثرت كثيرًا في نفسيته، وجعلته أكثر إصرارًا على إنجاز مهمته في إسرائيل، وهو ما يؤكد دور الناحية العاطفية، وبخاصة النسائية في شخصية رأفت الهجان، لكنها هنا ليست عاطفة الحب الوجداني، بل الحب العائلي، وقد يكون للمكان الذي قابل فيه الشخصية دور في هذا السياق، فالمكان مصر، والشخصيات الأخت "شريفة"، والدادة التي تشبه الأم "أم حسني"، وهو ما يوضح دور "معايشة البطل للأمكنة والأحياء التي تعطي له صلة، سواء كانت قريبة أو بعيدة، فيكون المكان هو اللوحة النفسية التي عاشها وعايشها البطل"[١]

ومن الشخصيات النسائية المؤثرة في رأفت، والتي قابلها في المجتمع الإسرائيلي، ولم تكن علاقاته معها قائمة على رؤية وجدانية شخصية "سيرينا أهاروني" التي استطاع من خلالها التعرف على بعض الشخصيات في إسرائيل، وكان بيتها مقرًا لاجتماعه مع بعض العملاء الذين يتعامل في كثير من الأحيان، فيقول:

"كانت سيرينا أهاروني واحدة من أشهر الشخصيات في إسرائيل في تلك الأيام، تعرف إليها الفتى ذات يوم في الهستدروت، فتحدثت إليه بالعربية قائلة: إنهما بلديات... مصرية الأصل هي. لا تخفي حنينها لمصر في السر أو العلن. يعلم الفتى أن بيتها يشهد في كل ليلة مجموعة من الصفوة من رجال الأعمال والضباط والساسة وأعضاء الكنيست. كما يشهد الكثير من الفضائح والأسرار."[١]

وأخيرًا يصور لنا الكاتب علاقته بالسيدة "هيلين ريشتر" التي تعرف عليها، وكانت سيدة أعمال ألمانية باهرة الحسن، وعرف أنها أرملة تُوفى زوجها، ووقع في حبها، وتزوجها وأنجب منها ولدين، فيقول:

"ثم... هناك السيدة التي وجد فيها –في النهاية– ضالته المنشودة، وهي قد أصبحت الآن أقرب إلى قلبه من أي إنسان آخر، وفوق الحب،

وحتى بعيدًا عن الحب، فلقد دخل معها في مشروع اقتصادي يشكل حجر الزاوية بالنسبة إلى مستقبله كله."[١]

لقد حقق رأفت نجاحًا كبيرًا، وانتصارًا هائلاً، أكد براعته وقدرته الكبيرة في إدارة شبكته التي كونها داخل المجتمع الإسرائيلي، وكان لها دور كبير في انتصاره عليهم، ونجاح مهمته.

"إن شبكة رأفت الهجان لعبت واحدًا من الأدوار الرئيسة والخطيرة في إمداد الوطن –في ظروف شديدة الحرج– بكل ما كان يحتاج إليه من معلومات ، كانت دائما سلاحا في يدنا" [١]

ويبدو أن من أوجه الاختلاف بين الروايتين في شخصية البطلين هو نجاح رأفت الهجان وعملائه في أداء مهمتهم، وفشل ليماس وعملائه، وقتلهم جميعًا في النهاية .

انتهت رواية "الجاسوس المستجير من البرد" بمقتل ليماس حيث قضت محكمة العدل في جمهورية ألمانيا الديمقراطية بفضح ليماس وشبكته، ويحاول مندت مساعدة ليماس وإليزابيث على الهروب من سجن. ومع ذلك، لم تعد هناك حاجة لكل منهما، فقد استخدمتها الأنظمة المتحاربة، ويموت البطلين، برصاص حرس الحدود في وقت عبور الحدود إلى برلين الغربية. هذا هو مصير الرجل "الصغير" الذي دمرته أحجار آلة الحرب. بينما ينتصر رأفت الهجان في مهمته ويخترق جهاز المخابرات الإسرائيلي، ويصبح بطلا يفتخر وطنه به.

ويرى الباحث إلى أنه كما سبق الطرح قد يكون لاختلاف العادات والتقاليد بين المجتمعات العربية والغربية تأثير على شخصية الكتّاب وأعمالهم الإبداعية، فالمجتمع الغربي قد يميل إلى الجريمة والعدوانية في بعض تقاليده، وهو ما ظهر في رواية الكاتب المبدع "جون لو كاريه"، لكن ذلك الأمر يختلف إلى حد ما في المجتمعات العربية، وقد يكون ذلك وراء قلة انتشار هذا النوع من الروايات في المجتمعات العربية، وهو ما يشير إليه عبد القادر شرشار في أن هذا النوع من

الروايات يتطلب "جمود الحس الديني، وعدم فعاليته في الحياة الاجتماعية والسياسية"[١]

وفي نهاية رواية "الجاسوس المستجير من البرد" يرسم جون لو كاريه صورة سيئة عن الجواسيس من خلال حوار ليماس مع لز بعد اكتشاف مهمته، وتعرضهما للمحاكمة، فيصورهم بالخونة والحمقى والمدمنين، يقول ليماس للز:

What do you think spies are: priests, saints and martyrs? They're a squalid procession of vain fools, traitors too, yes; pansies, sadists and drunkards, people who play cowboys and Indians to brighten their rotten lives. Do you think they sit like monks in London, balancing the rights and wrongs? I'd have killed Mundt if I could, I hate his guts; but not now. It so happens that they need him. They need him so that the great moronic mass you admire can sleep soundly in their beds at night. They need him for the safety of ordinary, crummy people like you and me."[١]

الترجمة :

"ماذا تظنين الجواسيس؟ قساوسة أم قديسون وشهداء؟ إنهم مجموعة قذرة من الحمقى التافهين والخونة كذلك. نعم. مخنثون وساديون ومدمنون. أناس يؤدون أدوار رعاة البقر والهنود الحم... كنت أريد قتل مندت لو استطعت، فأنا أمقته."[١]

يصور الكاتب العملاء الخونة الذين يتعاملون من أجهزة الاستخبارات المضادة ضد وطنهم بالحمقى التافهين. كما يقول متحدثًا عن مندت:

"Oh Liz," he said desperately, "for God's sake believe me. I hate it, I hate it all, Fm tired. But it's the world, it's mankind that's gone mad. We're a tiny price to pay... but every where's the same, people cheated and misled, whole lives thrown away, people shot and in prison, whole groups and classes of men written off for nothing. And you, your Party--God knows it was built on the bodies of ordinary people. You've never seen men die as I have, Liz..."[١]

الترجمة :

" قال يائسا: " آه يا لز، بالله عليك صدقيني. إني أكرهه. أكره كل هذا. أنا متعب. لكنه العالم. البشرية التي ذهب عقلها. نحن ثمن بسيط يدفع... لكن الأمر سيان في كل مكان. أناس يخدعون ويضللون. حيوات بكاملها تلقى جانبًا. أناس يقتلون ويسجنون."[١]

وأخيرًا فقد حرص الكاتبان على استخدام عناصر الجذب والتشويق وإثارة القارئ لمتابعة العمل الأدبي، وذلك لمحاولة غرس روح الوطنية وحب الوطن والدفاع عنه أمام الأعداء.

إن الاهتمام بالسياسة أمر تفرضه طبيعة الحياة في مجتمعات تناضل من أجل إثبات الوجود و نفي الظلم عن الوطن والمواطن، ولا يمكن فصلها عن جزئيات الحياة، أو الإقرار برفضها؛ لأنها في كل الأحوال لصيقة بالمجتمع.

لقد استطاع صالح مرسي بما لديه من تجربة إبداعية- فضلًا عن تأثره بقراءاته في أدب الجاسوسية في الأدب الغربي أن "يصوغ من هذه الوقائع والمعلومات أعمالًا إبداعية جاوزت التقيد بالتفاصيل والحقائق المرجعية؛ إذ اهتمت بالحقيقة الفنية أكثر من اهتمامها

بالحقيقة التاريخية، وقامت على إعادة ترتيب الأحداث لتتناسب والحبكة."[١]

كما استطاع الكاتب جون لو كاريه أن يقدم شخصياته بصورة مشوقة من خلال طريقته الغامضة والمثيرة من خلال إبداعه في الرواية .

الخاتمة

إذا كانت الدراسة المقارنة تقوم على رصد أوجه التشابه والاختلاف؛ فقد اخترنا نماذج روائية معينة تبين صورة البطل (العميل وضابط المخابرات) في روايتي "الجاسوس المستجير من البرد" لجون لو كاريه، و"كنت جاسوسا في إسرائيل" لصالح مرسي، واستطاع البحث من خلال مباحث الدراسة الوقوف على بعض النتائج، ومنها:

- جرد "جون لو كاريه" رواية الجاسوسية من الرومانسية والفتنة التي تتسم بها روايات جيمس بوند، واتجه بدلاً من ذلك إلى فحص تلك الحياة المعتمة والقلقة التي يعيش فيها الجواسيس والعملاء المحترفون؛ حيث كانت شخصية "أليك ليماس" غامضة ومحبطة تعاني من القلق والشقاء، وأيضًا شخصية مندت الذى اتسم بالخداع والغدر تجاه الآخرين، وظهرت الشخصيات تحمل بداخلها عقدًا ومشاكل نفسية وفساد وضعف إنساني.

- إن نشاط "جون لوكاريه" المهني بوصفه عميلًا سريًّا، والتجارب القاسية التي مر بها خلال فترة عمله في الاستخبارات البريطانية لم تسيطر على خياله أو روحه الخلاقة للكتابة الأدبية، بقدر ما مثَّلت له نقاط تأسيس وانطلاق ومصدر مصداقيّة وثقة لتناول قضايا الخداع البشرى المعقدّة في روايته.

-حرص الكاتبان على عرض الأحداث الواقعية في جو من التشويق والإثارة كي يكتشف القارئ من خلال الأحداث حقائق وعلاقات

متشابكة وجرائم قتل وفساد رجال المال والسياسة بصورة تغرس داخله حب الوطن، والاستماتة في الدفاع عنه تجاه أعدائه .

- قلة الدراسات الأكاديمية التي تناولت هذا النوع من الروايات في أدبنا العربي مقارنة بنظيرها في الأدب الغربي .

- تكشف رواية "الجاسوس المستجير من البرد" الجرائم الغامضة لحرب الجاسوسية التي تتعارض مع قيم الديموقراطية الغربية.

- لم تعرف الرواية العربية الحديثة هذا الأدب إلا مع احتدام الصراع العربي الإسرائيلي الذي شهد بروزًا لنشاط العدو الصهيوني في مجال الاستخبارات لتحقيق أهداف عسكرية وسياسية. فجاءت الرواية المخابراتية في الأدب العربي استجابة لتلك المتغيرات، وكنوع من المواجهة الأدبية مع العدو.

- لقد استطاع "صالح مرسي" أن يصوغ من المعلومات المخابراتية صورة مميزة للبطل رأفت الهجان، وجاوزت التقيد بالتفاصيل والحقائق المرجعية، إذ اهتمت بالحقيقة الفنية أكثر من اهتمامها بالحقيقة التاريخية، كما منح نفسه حرية التدخل الفني في رسم ملامحه وسماته، التي كان يغلب عليه حب الوطن والولاء القوي والشديد له .

- تشكلت ملامح الخطاب السردي وخصائصه في هذا الاتجاه متأثرة تـأثرًا واضحًا بطبيعة التكوين المعرفي للكُتّاب العسكريين الذي خاضوا غمـار هـذا الأدب؛ فلم يستطيعوا التخلص من حشد المعلومات العسكرية، وظهر ذلك بوضوح عند الكاتب جون لو كاريه الذي عمل مع أجهزة المخابرات البريطانية في فترة من حياته. كما كان الكاتب صالح مرسي على علاقة قوية برجال المخابرات المصرية، وكان يستمد معلوماته منهم .

_ لاحظنا أوجه الاختلاف في نهاية الرواية، واكتشاف شبكة ليماس، وقتله في النهاية. بينما نجح رأفت الهجان حقق انتصارًا بارعًا في

تكوين شبكة داخل المجتمع الإسرائيلي أسهمت في نجاحه في أداء مهمته.

_ أولى النقاط الفارقة بين شخصية "ليماس" عند "جون لو كاريه"، وشخصية رأفت الهجان عند صالح مرسي، في جانب الشخصية هو أن السجن لم يكن يدل على الذل والمأساة والمعاناة والشعور بالخوف، فهو عند رأفت الهجان لم يكن مكان لتحطيم الذات وقتل قيم الراحة والطمأنينة. كما أنه لم يكن عنده نقطة انتقال من الحرية إلى العزلة كما كان عند ليماس. لأن شخصية رأفت تختلف عن شخصية ليماس؛ فقد كان رأفت يتميز بشخصية جذابة قادرة على اكتساب المعارف والأصدقاء.

_ على الجانب الوطني هناك اختلاف بين شخصية "رأفت الهجان"، وشخصية أليك ليماس؛ لأن رأفت كان شديد الشوق لوطنه أكثر من الصورة التي ظهر عليها ليماس، وتكرر ذلك كثيرا في الرواية؛ فقد كان يحب وطنه حبًّا سيطر على كيانه، ودفعه ذلك إلى التحمل والصبر لأداء مهمته، وكان يتذكره دائما، ويتشوق إلى معرفة الأخبار التي تحدث في بلده.

_ وعلى الجانب الوجداني تفترق شخصية رأفت عن شخصية ليماس، حيث استخدم ليماس المرأة، وعلاقاته العاطفية لمصالحه الشخصية، في حين كانت المرأة عند رأفت الهجان تمثل نقطة ضعفه، بسبب تعاطفه الكامل معها.

فلا عجب إذا احتل البطل "رأفت الهجان" تلك المكانة العالية في الشرق والغرب، وسيظل اسمه حيًّا في قلوب الملايين من البشر، وسيظل التاريخ يحدث الأجيال عن سيرته العطرة ، وأخلاقه النبيلة في حب الوطن .

وآمل أن تكون هذه الدراسة بمثابة معين للمصادر العربية والأجنبية، فقد عرضت صورة صادقة للبطل الذي يدافع عن وطنه معتمدة على النص الأدبي الذي اتفق مع التاريخ .

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

1_ John le carre, " The Spy Who Came in from the Cold Coward, McCann edition, published January 1964.

١_ جون لو كاريه، الجاسوس المستجير من البرد، ترجمة شاكر حسن راضي، دار النسر للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

٢_ صالح مرسي، رأفت الهجان: كنت جاسوسًا في إسرائيل، الطبعة الأولى دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٠م.

ثانيًا: المراجع العربية

١_ أحمد عطية الله، القاموس السياسي، دار النهضة العربية، القاهرة ط٣، ١٩٦٨م.

٢_ أمينة رشيد، تشظي الزمن في الرواية الحديثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

٣_ أنور الجندي، خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث، دار الكتاب اللبناني، ط٢ ١٩٨٥م.

٤_ سمير مرزوقي وجميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة (تحليلاً وتطبيقًا)، ديوان المطبوعات الجامعية، دار التونسية، د. ت.

٥_ صالح زهر الدين، موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم: الوطن العربي والموساد، المركز الثقافي اللبناني، بيروت ط١، ٢٠٠٣م، ج٧.

٦_ الطاهر أحمد مكي، الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه، مكتبة الآداب، القاهرة ٢٠٠٠م.

٧_ عادل نيل، الرواية المخابراتية في الأدب العربي الحديث، المجلس الأعلى للثقافة، د. ت

٨_ عبد القادر شرشار، الكتابة البوليسية بحث في النظرية والأصول التاريخية والخصائص الفنية وأثر ذلك في الرواية العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣م.

٩_ عبد المالك مرتاض، القصة الجزائرية المعاصرة، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، ط٤، ١٩٩٠م. ٠

١٠_ عمر هارون الخليفة، علم النفس والمخابرات، الطبعة الثانية، دار ديبونو للنشر، الأردن ٢٠١٠م.

١١_ محمد بوعزة، تحليل النص السردي (تقنيات ومفاهيم)، دار الأمان، الجزائر، ط١ ،٢٠١٠م.

١٢_ محمود قاسم، رواية التجسس والصراع العربي الإسرائيلي، نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة القاهرة، د ت.

١٣_ نبيل فاروق الاختفاء الغامض، سلسلة رجل المستحيل، العدد ١المؤسسة العربيـة الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٦م.

ثالثًا: المراجع المترجمة

١_ إمبرتو إيكو، الأثر المفتوح، ت/ عبد الرحمن بو علي، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠١م.

٢_ جيرار جينت، خطاب الحكاية ت/ محمد معتصم، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١م.

٣_ جون لو كاريه، أدب الجاسوسية، وتحول جديد، ت/ أماني عبد الحميد، مجلة الهلال، مؤسسة دار الهلال، القاهرة، العام التاسع بعد المائة، العدد٢، فبراير ٢٠٠١م.

رابعًا: المراجع الأجنبية

1_ Brett F. Woods, Neutral Ground: A Political History of Espionage Fiction (2008) online P101.

2_ Literature, Sixth Edition Drabble, Margaret. The Oxford Companion to English (2000).

3_ Outdo, J. A. The Penguin Dictionary, Literary Terms and Literary Theory, Third Edition (1991).

خامسًا: الدوريات العلمية

١_ إيناس علي أحمد، ببليوجرافيا صالح مرسي رائد أدب الجاسوسية، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، العدد ٧٦، (صيف- خريف ٢٠٠٩م).

٢_ بوشعيب الساردي، مفارقة الإنتاج والتلقي في الرواية البوليسية العربية، مجلة فصول، ع ٧٦، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٩م.

٣_ جين سياباتاري، كيف غيرت نهاية الحرب الباردة مضمون روايات الجاسوسية، ppc news ١٨ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠١٤م.

٤_ حسين دحو، الأدب الموازي في الأدب العربي: إشكالية المفهوم والنظرية دراسة في الكتابة البوليسية العربية، مجلة مقاليد، العدد ٩، ديسمبر ٢٠١٥م.

٥_ شاكر نوري، إيان ماكوين: الروائيون أساتذة في التجسس، صحيفة البيان، ٢٠١٣م.

٦_ شعيب حليفي، التخييل ولغة التشويق: مقاربة في البناء الفني للرواية البوليسية في الأدب العربي، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، العدد (٧٦)، (صيف- خريف) ٢٠٠٩م.

٧_ صالح مرسي، ضجة إعلامية داخل إسرائيل حول كتاب "رأفت الهجان"، جريدة الشرق الأوسط، العدد ٣٣٧٢، السنة العاشرة، ١٩٨٨م.

٨_ عادل محمد عبد الحميد نيل، الرواية المخابراتية في الأدب العربي الحديث (دراسة في المصطلح والمسيرة ومقومات الخصوصية)، مجلة كلية اللغة العربية إيتاي البارود، جامعة الأزهر عدد أغسطس ٢٠١٦م.

٩_ محمد عبد الرحمن، جريدة اليوم السابع، مقال بعنوان "حقيقة كاملة أم خيال؟.. كواليس كتابة صالح مرسى مسلسل رأفت الهجان.." ٣٠ يناير ٢٠٢١.

١٠_ ناصر أحمد سنة، الجاسوسية في الدراما والأدب، المجلة العربية، العدد ٥٣٤، ٢٠١٣م.

١١_ ندى حطيط، الجاسوس الروائي "جون لو كاريه"، صحيفة الشرق الأوسط (لندن)، ديسمبر ٢٠٢٠م.

١٢_ هبه الجندي، مجلة اقرأ، أشهر روايات الجاسوسية والتخابر، ٢٠٢١م.